





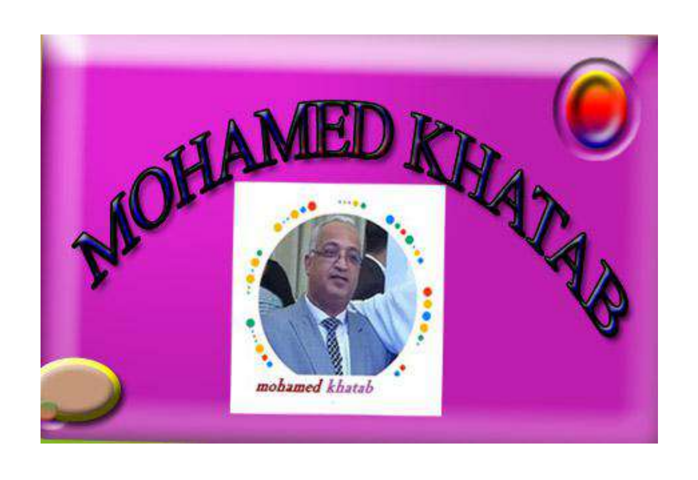
د. رامي سمير أبو نفاع

الآخر وجوديًا ومعرفيًا

إضاءات فلسفية على حتمية التنوع







الآخـر وجوديًا ومعرفيًا

إضاءات فلسفية على حتمية التنوع

- الآخر وجودياً ومعرفياً: إضاءات فلسفية على حتمية التنوع.
- سلسلة الفلسفة الشباب.
- المؤلف: رامي سمير أبو نفاع.
- **الطبعة:** الأولى، ٢٠٢١م
- **الناشر: وزارة الثقافة**

شارع صبحي القطب المتفرّع من شارع وصفي التل، بناية رقم ٢٠ – ص.ب: ٦١٤٠، عمان – الأردن

تلفون: ٥٦٩٦٢١٨ / ٥٦٩٩٠٥٤ – فاكس: ٥٦٩٦٥٩٨

بريد إلكتروني: info@culture.gov.jo

- **مصمم الغلاف:** عُبادة الفحماوي
- **متابعة وتنسيق:** فادية نوفل
- **التنسيق والإخراج الفني:** محمد عدنان

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(٢٠٢١/١٠/٥٨٤١)

١٢٨

أبو نفاع، رامي سمير

الآخر وجوديًا ومعرفيًا: إضاءات فلسفية على حتمية التنوع

رامي سمير أبو نفاع.- عمان: وزارة الثقافة، ٢٠٢١.

(١٠١) ص

ر.إ.: ٢٠٢١/١٠/٥٨٤١

الواصفات: / التفكير/ / احترام الذات/ / العقلانية/ / العلاقات الانسانية/ / الحياة(فلسفة)/

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر بالضرورة عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

ردمك: (978-9957-94-729-3)

الآخـر وجوديًا ومعرفيًا

إضاءات فلسفية على حتمية التنوع

د. رامي أبونفاع

وزارة الثقافة الأردنية

٢٠٢١م

المقدمة

يهدف هذا الكتاب إلى معالجة مفهوم الآخر من منظور فلسفي على الصعيد الوجودي (أنطولوجيا) والصعيد المعرفي (أبستمولوجيا)، بأسلوب يقارب فهم القارئ غير المختص، والذي لم يعترك مع المفاهيم الفلسفية الجدلية (الديالكتيكية)، وفي الوقت نفسه نأمل أن يسهم هذا الجهد في نثر بعضاً من بذور الوعي، وتبسيط المعاني والمفردات الفلسفية، بما يتناسب والذائقة العامة التي نفترض عدم اعتراكها مع الفكر أو المنهج الفلسفي من قبل، والغاية هنا هي السعي لتجاوز الصورة النمطية وتغييرها أو التقليدية المغلوطة عن الفلسفة، والتي علق بها مع الوقت الكثير من الشوائب التي تحول اليوم دون تحقيق رؤية واضحة ونقية، ثم بيان مدى أهمية الفلسفة في مواجهة التحديات الحياتية

المعاصرة، ومدى قابليتها للإجابة على الأسئلة الوجودية على الصعيدين الفردي والجمعي، ومن ثم دورها في معالجة المفاهيم الإشكالية، وكيف يفضي هذا إلى نتاج حضاري وإنساني يليق بالمكانة الإنسانية وكرامة الفرد.

يُعالج الكتاب مفهوم الآخر والإشكاليات التي قد تنتج أو ترافق هذا المفهوم في المعاملات الحياتية بين الأفراد في المجتمع المعاصر، وما يمكن أن يفضى إليه من انعكاسات سواء إيجابية أو سلبية انطلاقاً من الإطار المعرفي والتكوين الثقافي والتأسيس العقلاني، الذي ينطلق منه الفرد في فهم الآخر وقبوله والانفتاح عليه، ذلك إن إعمال العقل أي استخدام أدواته المنطقية، والتدريب على محاكمة الأفكار قبل تبنيها وقبولها له، الأثر الأكبر على تسيير حياة الأفراد واتخاذهم للقرارات وتنميط سلوكهم.

في سبيل تحقيق هذه الغاية سيكون لنا وقفة لبيان التكوين الثقافي للحضارات التي تعاقبت في هذه البقعة الجغرافية التي ننتمي لها اليوم ونعيش عليها، سيكون هذا بمثابة اللبنة الأولى أو المدخل الذي من خلاله نؤسس ونؤكد واقع

التنوع التاريخي، أي أن نقطة البدء هي بيان تاريخانية التنوع، ومن ثم عبثية الحديث عن الوجود الأحادي لأي فئة أو جماعة في أي مجتمع، أو تكوين حضاري.

نقدم بعد ذلك إلى المعالجة الفلسفية والمحددات الفكرية والمحاكمة العقلية لمفهوم الآخر، وفق مناهج واضحة وصارمة لمحاولة بيان من المقصود بالآخر؟ وهو آخر بالنسبة لمن؟ في حقيقة الأمر إن الإنسان الفرد نفسه يمثل ذاته ويمثل الآخر، والدعوة في المقام الأول وقبل الشروع في محاولة فهم الآخر أو الانفتاح عليه وقبوله، هي لفهم الإنسان لذاته والانفتاح عليها، وقبول التنوع والاختلاف ليس على الصعيد البين ذاتي فقط، أي بين الإنسان الفرد وأخيه الإنسان، بل وعلى المستوي الشخصي أيضاً، ليكون انفتاح الإنسان ووعيه لذاته هي نقطة الانطلاق بعد ذلك نحو الآخر، أي نحو العلاقات بين الذوات، فالدعوة هي لفهم الإنسان لذاته والغوص في أعمق مكوناته ومكنوناته على صعيد الوعي واللاوعي على حدّ سواء، لنشكّل اللبنة الأولى التي نتوجّه بعدها للآخر، ونحن

محمّلين بالوعي والإدراك بأن التنوع غنى، وأن علينا أن نعيش هذا الغنى، فالتطور والتقدّم الإنساني محكوم على الصعيدين الوجودي والمعرفي بطبيعة العلاقة بين الذوات الإنسانية، على ما فيها من تباين واختلافات، ولنا في الماضي والحاضر مثالاً يُحتذى، فعلى الصعيد الوجودي لا يخفى مقدار التأثير والتأثر الحاصل بين الحضارات، حيث تقدّم الحضارة نفسها من خلال منجزاتها لتكون مثالاً وقدوة، وإلا فما الغاية من أي فعل حضاري؟ وكلما زاد اعتداد الفرد بحضارته أو فكره ومعتقده أو عقيدته كلما كان متحفزاً ليعرض هذا الفكر أو المعتقد للآخرين، ليشرق نوره عليهم في صراع متكافئ بين الأفكار والمعتقدات، يقوم على العقل والبرهان والمنطق السليم، وليس على الإقصاء والعنف والرفض والقتل، يسلّط هذا الضوء على أهمية الحوار والانفتاح على الآخر، وكيف أنه يُسهم في تقدّم الفرد على المستوى الذاتي قبل أن يُسهم في ارتقاء الفعل الحضاري والتكوين الثقافي للإنسان بشكل عام.

وفي الختام، لا بدّ من التأكيد الدائم على أن الانفتاح على الآخر لا يعني الذوبان فيه، والانسحاق معه أو أمامه، أو إلغاء الذات، بل هو العكس تماماً، فالإنسان ينمّي ذاته، ويصيغ فكره بشكل أفضل وأكثر نسقية ليكون قادراً على تقديمه ضمن مجموع الأفكار الحضارية والتنوع الإنساني القائم على أرض الواقع، فالتركيز على الآخر والعمل معه يُسهم في صقل الذات واستمرار عملية نضوجها، بما يضمن لها الاستمرار في الوجود العملي والنظري.

مَن هو الآخر؟

قد يتبادر إلى ذهنك أيها القارئ العزيز، أن هذا السؤال بديهي ويسهل الإجابة عليه، لكن اسمح لي أن أخبرك أنك أمام سؤالٍ أكثر تعقيدًا مما بدا لك، وأن الإجابة عليه ليست من السهولة بمكان، لهذا سأبدأ معك رحلة نتشارك فيها السعي لمحاولة تقديم إجابة شافية ومرضية ويمكن الاستكانة لها قدر الإمكان، على هذا السؤال "البسيط"، من هو الآخر؟

قد تُجيب على هذا السؤال بأكبر قدر من الشمولية وتقول بأن الآخر هو كل ما سِواك، وهي إجابة فيها بعض من الصواب، لكن لربما لم تلحظ أنك في إجابتك هذه جعلت نفسك في كفّة، كل من تبقى على الأرض من بشر في الكفّة الأخرى، وإذا ما فكّر الجميع بذات الطريقة، فإن هذا سيقود إلى أن يرى كلٌّ مِنّا نفسه، يقف أيضًا في جهة ما ويقابله جميع البشر في الجهة الأخرى، وهذا ضرب من الجنون، إذ كيف يستقيم على أقل تقدير معنى المجتمع وفق هذه الرؤية ضيقة

الأفـق؟ وفـق هـذه الرؤيـة التـي تقـود إلـى جعـل أبـي وأمـي وأخوتي وحتى زوجتي وأبنـائي ينضـون تحـت مسـمى الآخـر بالنسبة لي، وأنا بالمثل "آخراً" بالنسبة لهم.

حسـنـًا، لنحـاول مـن جديـد، لـنقم بتوسـيع دائـرة الآخـر بعض الشيء لتشمل عائلتي وأصدقائي وبعض المقربين، ألا يبدو هذا أفضـل مـن التصـوّر السـابق؟ نعـم إنـه كـذلك، لكـن للأسف يُساق عليه ما يُساق على سابقه، وإن كـان أقـل وطـأة إذ أنه ليس بذات الدرجة إلا أنه يعاني من خلل أيضـًا. يمكـن لنا أن نستمر في توسعة دائرة الآخر أكثر فأكثر، لتشـمل الـذين ينتمون لذات الحزب، أو أبنـاء الـوطن الواحـد، ولربمـا نزيـد قطر الدائرة لتصل إلى المؤمنين اتباع الـدين والمعتقـد نفسـه، لكن دعني أؤكد لك أن هذا لـن يصـل بنـا إلـى نتيجـة أفضـل، ببسـاطة لأن كـل هـذه النطاقـات أو الـدوائر علـى اتسـاعها لا تزال تعـاني مـن خلـل جـوهري، وهـذا الخلـل هـو مـا يُفقـدها صلاحها، ويتمثّل هذا الخلل في أن المعيار الـذي نعـوّل عليـه للإجابـة علـى سـؤال مـن هـو الآخـر، أو لنقـل المعيـار الـذي نتكئ عليه في سعينا لتحديـد نطـاق حـدود الآخـر، هـو معيـارٌ

ذاتي قـائم عليـك وحـدك، خاضـع لتصـوراتك وآرائـك وأهوائك، ويمثل انعكاساً لنطاق علاقاتك ووعيك، ويشمل محيطك، وهذا يُساق على كل أفراد المجتمع لا بل كل أفراد الجنس البشري عامة، فلكل مِنّا عائلته ومحيطه ووطنه ودينه، كما قد يكون لكل منّا معياره أيضـاً. وهكذا يتضح لنا من جديد أننا لا نزال أمام ذات المشكلة (المعضلة)، والتي تكمن في أن التباين في الإجابة على هذا السؤال يبلغ من الاتساع ما يجعل كل الإجابات سواسية أمام المعيار الذاتي، إذ لن ترجّح إلا كفّته، وكي لا نقول من الاستحالة، لنقل سيكون من الصعوبة بمكان أن نقدم إجابة على سؤال بدا لنا أول الأمر أنه من البداهة واليسر بأن لا حاجة للإجابة عليه والمتمثّل في "من هو الآخر؟". إذاً لنحاول معـاً من جديد أن نجيب على هذا السؤال منقادين بالرغبة في عدم الاعتماد على المعيار الذاتي، عاقدين العزم لصياغة أو تحديد معيار موضوعي إن أمكن ذلك، بحيث يكون قائمـاً على أساسٍ عقلي، ومنسجماً مع التقدم الفكري والحضاري، ليشكل إجابة تليق بإنسان القرن الحادي والعشرين.

يتكوّن الإنسان من ثلاثة أبعاد على الأقل، أولها البُعد الوجودي: إذ يرتبط الإنسان بالزمان والمكان، ولا يمكن الحديث عنه إلا ضمن قالبي الزمان والمكان، وبُعدٌ معرفي: يتمثّل في جانب الإنسان الثقافي، وما يتضمنه من نتاج حضاري وما له من آراء ومعتقدات، وما يتجلّى عنه من أصناف الأدب أو الفنون المختلفة، والبُعد الثالث هو بُعدٌ وجداني: يتمثّل في المشاعر أو العواطف والرغبات، ويُعدّ هذا المكوّن في الإنسان أكثر المكونات خصوصية، لأنه يتصل بالتجربة الذاتية والشخصية، والتي - أي التجربة الذاتية - لا تخضع لأي معيار موضوعي، إذ أنها تتصل بالمشاعر والعواطف والرغبات الفردية والذاتية الشخصية، وليس لأحد أن يقيمها أو ينتقدها، فكل إنسان لديه الحرية في أن يُحب أو يرغب بأمر ما على حساب أمر آخر، وطالما أن هذا الاختيار يمسّه وحده ولا يتضمن أي تجاوز على القانون أو على الآخرين، فليس لأحد أن يأخذ عليه اعتماده لمعيار ذاتي، ولهذا فإننا لن نخوض في هذا المكون لدي الإنسان، وسنكتفي في الحديث عنه بهذا القدر.

لنعـد إذا إلـى البعـديين الأخـريين، والـذي باعتقـادي إن تمكنّا من الإحاطة بهما والوقوف على فهمهما بشكل كـافٍ، ستتمكن من صياغة أو الاقتراب من صياغة معيار موضـوعي لتحديد "من هو الآخر"، وإعادة صياغة المفهوم سيقود إلـى تشكيل فهم جديد، أجزم أنه سيكون أكثر وعيـاً ونضـجـاً ممـا لنا الآن عن الآخر.

للتفكير والنقاش:

١) مـا الإطـار المرجعـي، أو المعـرفي الـذي تنطلـق منـه في تحديد وتعريف الآخر؟

٢) مَن هو الآخر بالنسبة لك؟

٣) ما الموقف الذي تتخذه من الآخر؟

الإنسان أنطولوجياً (الجانب الوجودي)

لا يمكن الحديث عن الجانب الوجودي (الأنطولوجي) للإنسان إلا ضمن قالبي الزمان والمكان، حتى يصبح بالإمكان ضبط الحديث وتوجيهه، إذ لا يجدر بنا إن كُنّا نتوخى الدقّة أن نتحدّث بإطلاق عن الجانب الوجودي للإنسان؛ لأنه لن يقود إلى أي معرفة، ولن يتجاوز الحديث فيه عن العموميات التي لا يمكن التعويل عليها في بناء تصور دقيق أو فهم حقيقي وعميق لهذا الجانب أو المكّون المحوري في الإنسان، والذي يرتبط بوجوده بشكل مباشر، وللقيام بذلك وجب علينا تحديد الزمان والمكان اللذين ننوي تحديد البحث في إطارهما بشكل موجّه ومدروس، ومن ثم ربط هذين الجانبين أي الزمان والمكان بالجانب الإنساني، سواء على الصعيد الفردي أو الجماعي، آخذين بعين الاعتبار أن بعض المناطق الجغرافية امتازت بأهمية تفوق غيرها من المناطق على مر الزمان، مما جعلها محطّ

ركابٍ ومنطقة استقرارٍ للعديد من الحضارات والجماعات البشرية التي توالت عليها زمانيـًا أو تجاورت على أرضها مكانيـًا. من هنا، وانطلاقـًا من وجودنا في هذه البقعة الجغرافية تحديدًا يبدو أنه من المناسب أن تكون موضع بحثنا ومضرب مثلنا. والحديث في هذا المقام سيقتصر على منطقة الهلال الخصيب، التي كانت تعرف تاريخيًا على أنها تضمّ كلًّا من الأردن وفلسطين وسورية ولبنان والعراق.

تعاقب على هذه المنطقة عدد من الحضارات، فلم تخلو يومًا من الوجود الإنساني، وهذا ما يدعو للتوقف والتأمل مطولاً، ليس فقط هذا التعاقب المستمر عبر الزمان، أو الأهمية الاستراتيجية التي حافظت عليها المنطقة في كل هذه الحقب، وإنما مقدار التعدد والتنوع الوجودي في الحقبة الزمنية ذاتها، فلا نكاد نجد مرحلة واحدة منذ بدايات الوجود الإنساني في هذه المنطقة حتى يومنا هذا، كانت فيه الأرض حكراً لجماعة أو فئة واحدة فقط، مهما بلغت هذه الجماعة أو الفئة أو حتى الحضارة من قوة عسكرية أو اقتصادية أو تعداد سكاني، بل على العكس من ذلك نستطيع أن نرصد

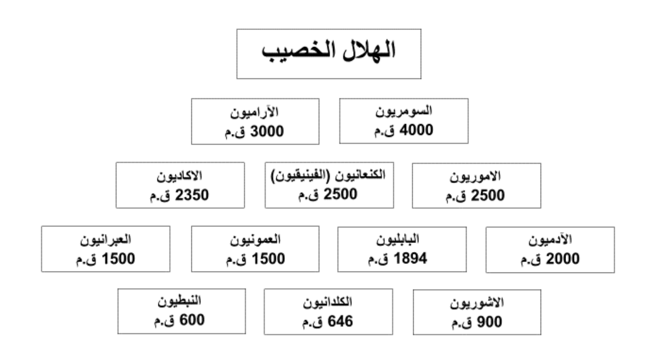
عيش الأفراد على اختلاف الأجناس والأديان وحتى اللغات واللهجات في بوتقة المكان الواحد في الفترة الزمنية ذاتها، وكان أقصى ما يمكن رصده أو الحديث عنه هو شيوع نمط ما على حساب غيره من الأنماط أو لربما على أفضل تقدير، شيوع نمط ما أكثر من غيره من الأنماط، لكن بالتأكيد لا يمكن الحديث عن تفرد لنمط ما أو محاولة محو جميع الأنماط لحساب نمط أو اتجاه واحد بعينه فقط.

أكاد أجزم أنه إن كان لنا أن نصف هذه المنطقة أو نميزها بمزية ما، فإن هذه المزية هي التعدد والتنوع، ذلك أن مقدار التنوع الذي مرّ على أرضها واحتوته بين جنباتها يُعد أمراً فريداً ونادر الحدوث بهذا القدر، وعلى رغم هذا التنوع الكبير في الوجود الإنساني واستمراره أو تعاقبه في عدد كبير من المناطق أو الأماكن الاستراتيجية على امتداد جغرافية الأرض، إلا أنه قلّ ما نجد حالة مشابهة للحالة التي نحن أمامها، لا بل نحن جزء منها ومن نتاجها بشكل أدق، ونذكر هنا أن هذه المنطقة تاريخياً تُعرف بالهلال الخصيب، واليوم للأسف الشديد تمّ تقسيم هذه المنطقة لتصبح دول مستقلة بذاتها، ترتسم بينها

حدود فاصلة واضحة الأبعاد تفصل بين أرضها وشعبها أو سكانها بعد أن كانت أرضاً واحدةً وشعباً واحداً.

إننا مدعوون هنا إلى رصد الجانب الوجودي للإنسان أو رصد الإنسان على الصعيد الوجودي، أي ارتباط الإنسان بالمكان ووجوده فيه، وهذا الرصد لا يمكن أن يكون مطلقاً في الزمان، أي دون تحديد حقبة زمنية محددة، لذا وجب تحديد فترة زمنية نسعى لتتبع هذا الجانب للإنسان فيها، كي نستطيع الوصول إلى حالة الوعي المرتبطة بإطاري الزمان والمكان، بغية رصد مقدار وطبيعة التنوع في هذا الوجود الإنساني، ولا شك أن الدهشة ستعتريك يا عزيزي إن عرفت أن الإنسان العاقل (Homo Sapiens) والذي يعود تاريخه إلى ٩٠ ألف ق.م كان يوجد في منطقة جبل الكرمل في فلسطين، وإن إنسان النياندرتال (neanderthalensis Homo) كان يوجد في منطقة طبريا في شمال فلسطين أيضاً. ناهيك عن الشعوب والحضارات التي توالت على هذه المنطقة من الفينيقيين، الأراميين، الأمونيين، الكنعانيين، بني إسرائيل، الرومان، وغيرهم من الثقافات مع ما اشتملت عليه من نتاج حضاري،

سواء تزامن هذا الوجود في الوقت ذاته أو تتابع على الأرض ذاتها، ولا يُعد الرسم التوضيحي المُرفق حصراً لهذه الثقافات، إنما تعداد لبعضها، والتي وجدت في منطقة الهلال الخصيب منذ آلاف السنين، وما نحن اليوم إلا امتداد لهذا الوجود الإنساني في زمان مختلف، ولكن في البقعة الجغرافية ذاتها.



تعاقبت هذه الثقافات ذات الحضارات واللغات والأديان المختلفة في المكان ذاته، فشكّلت تاريخاً وحاضراً ومستقبل المنطقة، وحددت طبيعة مكونها وتكوينها، وهو ما أفضى إلى استمرار الوجود الإنساني فيها، لذلك كان الحديث عن الإنسان وجودياً (أنطولوجياً) يُعد حقيقة تاريخية وحضارية لا يمكن تجاوزها أو غضّ الطرف عنها أو حتى محاولة طمسها كما يحدث الآن، فما وجودك اليوم أيها القارئ إلا امتداد لذاك الوجود، وحقيقة أن الوجود الإنساني يمتاز بهذا الإرث الكبير جداً من التنوع، هو أمر يجب أن يكون له أثر فينا، ومحفز لنا يدفعنا لتشكيل موقف واعٍ تجاه الآخر وتجاه تعريف الآخر، أو لربما ليس فقط تشكيل موقف واعٍ، وإنما إعادة تعريف مفهوم الآخر وصياغته، ومفهوم الاختلاف ككل. وهذه النتيجة العملية لهذا الوعي هي النتيجة المرجوة من المعرفة التاريخية لهذا الإرث.

يُشار هنا إلى أن للفظة التاريخ باختلاف اللغات عدة معاني، مع أن لها معنى واحداً عاماً وواضحاً مفاده مجمل الأحداث التي حصلت في حياة البشرية، إلا أن لها معاني فرعية أقل انتشاراً، إذ تحمل الكلمة في جذرها اليوناني معنى النظر، أي

ليس فقط رصد الأحداث بل النظر فيها ومعرفتها، والمعرفة التي ليس لها فائدة عملية أو يتم ترجمتها لفعل على أرض الواقع لا يعوّل عليها، ولا قيمة لها، يقود هذا للقول إلى أن معرفتنا للغنى الثقافي والحضاري لمنطقتنا إن لم يُسهم في ارتقاء وعينا ورفعة سلوكنا، فلا فائدة من الاكتفاء بمعرفته فقط.

المطلوب هنا هو إعادة تعريف المفاهيم بما يتناسب مع هذا الوعي وهذه المعرفة. إننا حين ننظر إلى الوراء في هذا الإرث العظيم والكبير والممتد في التاريخ، نرى صورة فريدة من التنوع، ولكن ليس أي تنوع، بل تنوعاً في الوحدة وتناغماً وتكاملاً للأجزاء في الكل، ومن الجلي أن مجرد المحاولة لوضع تصور شمولي لهذا التنوع ومقداره من شأنه أن يُعيد تشكيل الوعي الجمعي للمنطقة كلها، فعلى الرغم من العوامل المشتركة والروابط الوثيقة بين الأفراد والمجموعات في هذه البقعة الجغرافية التي ترمي بجذورها في عمق التاريخ الممتد لمئات السنين إن لم يكن لآلاف السنين سواء عامل اللغة، أو عامل الدين، وما يرتبط بذلك من وحدة الحال، فنحن نرتبط على صعيد التحديات

والصعوبات في الأصعدة كافة وعلى اختلافها، إلا أن الأمل واحد، كما هو الألم واحد.

إن الدعوة هنا هي دعوة للوعي والفهم، أن نعي حقيقة هذه القواسم المشتركة، ومدى عمقها وتجذرها في الجانب الوجودي للإنسان، وفهم لهذه الميزات المتباينة التي ساهمت في تنوع المكون الداخلي، وما ارتبط به من أثر على الصورة العامة أو الكلية للحضارة، وعلى نمط الوجود الإنساني وشكله فيها، ذلك أن كل مكوّن من هذه المكونات كانت له عاداته وتقاليده الاجتماعية، كما كانت له طقوسه الدينية، وله أيضاً نتاجه الثقافي، وهذا التنوع الكبير أفضى إلى إثراء الموجود العاقل (الإنسان)، وساهم في تكوينه المعرفي، سواء على صعيد الوعي وما نتج عنه مباشرة على أرض الواقع، أو على صعيد اللاوعي وما نتج عنه لاحقاً بشكل غير مباشر، ولهذا وجب علينا التوقف عند الجانب المعرفي للإنسان، الذي من خلاله يمكن لنا أن نُطلّ على جوانب انتاجه الحضاري على الأصعدة كافة، بعد أن كشفنا النقاب عن جزء من جانبه الوجودي.

للتفكير والنقاش:

١) ما هي الشروط أو المبادئ التي لا تستطيع التنازل عن وجودها في المجتمع الذي تعيش فيه؟

٢) ما أثر الموروث الثقافي في تشكيل وعيك وتحديد نمط سلوك؟

الإنسان معرفيًا (ابستمولوجيا)

يرتبط الحديث عن الإنسان في جانبه المعرفي، بتسليط الضوء على المكون والنتاج المعرفي على حدٍ سواء، فالمكوّن المعرفي يتكوّن من عدة محاور ثقافية وحضارية، ومن المفيد أن نذكر هنا أنه وعلى رغم من أن العديد من الدراسات بيّنت وميّزت القول في الفرق بين الثقافة والحضارة، إلا أن المعنى الذي يكاد أن يتّفق عليه هو أن للثقافة مدلولاً أعم وأكثر شمولية من الحضارة، وحسبنا هنا الاكتفاء بهذا التوضيح، فالتمثّل الثقافي والحضاري المتحقق في النتاج الأدبي وما فيه من تنوع كالرواية والشعر، والموسيقى وحتى الرقص، وأيضًا المكوّن المعماري المتحقق في البناء وفن العمارة وأنماط الهندسة، وكذلك المكوّن الاجتماعي الذي جاء متمثلاً في العادات والتقاليد والأزياء (أي طريقة اللبس)، ثم ما نتج في هذه الثقافات من مكوّن ديني أو طقسي (شعائر)، أكان ذلك نصًا مقدسًا أو

أماكن عبادة، ويشتمل أيضـًا على رصد مختلف الحقول المعرفية التي أثارت اهتمام هذه الجماعة الإنسانية أو تلك، كالفلك والطب والتشريح، أو الرياضة والفلسفة وغيرها، ولنا في مرحلة الثقافة العربية الإسلامية مثالاً على توسع دائرة المعارف والحقول البحثية التي ازدهرت بسبب اهتمام العرب بها لتشمل علومـًا جديدة، وضع العلماء العرب بصماتهم عليها مثل علم الضوء وعلم الكيمياء والرياضيات، وبالتأكيد علم الترجمة التي استطاع من خلالها العرب الاطلاع على الفلسفة اليونانية، وما نتج عنه من تقديم إسهاماتهم فيها، ثم استلهما الأوروبيون ونسخوا منها ما نسخوا، وأسندوا لأنفسهم لها ما أسندوا، الأمر الذي ليس هنا مقام تفصيله والشروع في بيانه، ويكفي أن نذكر أسماء، مثل: ابن هندو (٤٢٣هـ/ ٩٤٦م)، وابن الهيثم (٤٣٠هـ/ ١٠٤٠م)، وابن رشد (٥٩٥هـ/ ١١٩٨م)، والغزالي (٥٠٥هـ/ ١١١١م) والقائمة تطول، للإشارة إلى هذا الأثر.

حين يتم البحث في النتاج المعرفي لحضارة ما، يقصد بذلك اللغة التي أُنتج أو كُتب بها هذا النتاج، ثم يقصد به

المنطقة الجغرافية التي نتج فيها، فالفارابي (٣٣٩هـ/ ٩٥٠م)، على سبيل المثال ليس عربياً لكنه يُعتبر من مكوّنات الثقافة العربية الإسلامية، ينتمي لها ويُحسب عليها، والفيلسوف يحي بن عدي (٣٦٤هـ/ ٩٧٥م) فيلسوف مسيحي، لكنه أيضاً يُعتبر من مكوّنات الثقافة العربية الإسلامية، ينتمي لها ويُحسب عليها، وهذا يقود للتأكيد على أن التقدم أو التطور في أي من الحقول المعرفية أو العلمية في الحضارة العربية الإسلامية لم يكن يقتصر على فئة بعينها أو اتباع دين ما دون غيره، إنما مردّه للمجتمع بكلّ مكوناته، وجميع فئاته على تباينها وتنوعها، إذ اشتمل الأمر على المسلمين العرب، والمسلمين غير العرب، وضم أيضاً المسيحيين العرب، والسريان، وحتى بعض الفرس الذين وضعوا نتاجهم الفكري باللغة العربية.

نقف اليوم أمام هذا الإرث الحضاري الفريد والمتنوع، على الرغم مما قدّمته الحضارات الإنسانية المختلفة والمتعددة والممتدة على مساحة الأرض طولاً وعرضاً، يملؤنا الفخر والاعتزاز بهذا الموروث الإنساني الذي قلّ

نظيره في شتى بقاع الأرض، ونقف أيضاً لنفكّر معاً أو ربما لنتأمّل معاً في موقف هذه الجماعات الإنسانية التي عاشت وتفاعلت مع بعضها بعضاً في هذه البقعة من الأرض، لو أن كلّ فئة أو جماعة أو ثقافة في هذا الموروث جعلت همّها الأول وشغلها الشاغل، أو على أقلّ تقدير جعلت من ضمن قائمة أهدافها تأكيد تفردها ومحاولة إقصاء أو القضاء على كلّ ما لا يشبهها أو يتماها مع فكرها، وثقافتها، ولغتها، ولباسها، وموسيقاها، ونمط البناء والعمران فيها، أو غيرها من مكوّنات هذه الثقافة ومفردات تكوّنها، أكاد أجزم أننا سنقرأ تاريخاً لا يفوح منه إلا رائحة الجهل والتخلف، تاريخاً ليس فيه إلا تكريس لثقافة الموت والدم. لنحاول معاً أن نحصي ما كان يمكن أن نفقده لو كان الحال هكذا، سنفقد الأبجدية الأوغاريتية، والأسطول البحري الفينيقي، وبرج بابل ومسلاته، وشريعة حمورابي، سنفقد بتراء الأنباط، والمدن العشرة الرومانية، سنفقد ترجمة العرب السريان للفكر اليوناني، وما نتج عنها من إبداع في الثقافة العربية، سنفقد إسهامات العرب في الطب والرياضيات

والموسيقى، سنفقد أيضاً ما بُنيي على ما قدّمه العرب من قِبل الأوربيين والقائمة تطول، لا بل تطول جداً، وعلى رأس ما سنفقده هو حاضرنا الذي ما كان له أن يكون على ما هو عليه دون التمازج والتداخل في كل هذه العوامل التي أفضت إلى تشكيله.

إن مجرد التفكير فيما يمكن أن نفقده من كل ثقافة أو حضارة قامت أو مرّت على هذه المنطقة، هو أمر يكاد العقل يعجز عن حصره، فكيف لنا أن نُعيد تشكيل وعينا ومفردات لغتنا دون هذه الإسهامات الأصيلة ذات الانعكاس المضيء ليس على حضارتنا وثقافتنا فقط، وإنما على الثقافة الإنسانية جمعاء. نتيجة لذلك أرجو أن لا يتبادر إلى ذهننا أن الأوضاع أو البيئة كانت مثالية أو وردية أو حالمة، لأنها في حقيقة الأمر لم تكن كذلك، لكنها أيضاً لم تكن بالتأكيد بيئة إقصائية أو رافضة أو عنصرية – مع الأخذ بعين الاعتبار بعض الأحداث أو المواقف المخالفة لذلك – وبخلاف ذلك ما تكون هذا الإرث أو ما وصلنا منه على أقل تقدير، ومع علمنا بأن الحروب كانت حاضرة والصراعات حاصلة، إلا أنه يجب أن

لا يغيب عن ذهننا أن لنا العبرة من كل ما هو سلبي، والفائدة من كل ما هو إيجابي.

يقود النظر بعين الوعي لهذا الإرث إلى إدراك أننا نقف أمام تجلٍّ واضحٍ لتلاقح الفكر الإنساني المتنوع، والذي يجسّد مثالاً حقيقياً للتفاعل العملي بين الذوات المختلفة، التي تضافرت فيه جهود متباينة في حركة مستمرة نحو البناء والتقدم الحضاري، إذ ساهم هذا المزج والتفاعل بين المكوّنات المعرفية المختلفة وشديدة التباين والتنوع في إطار وجودي محدد، إلى تشكيل أو ظهور حالة استثنائية من الاستمرار الحضاري شديد الخصوبة، كانت ولا زالت حالة لافتة للنظر، ومحطّ اهتمام الباحثين والدارسين على مرّ الزمان، ولا زلنا حتى يومنا هذا نُفاجأ بين الحين والأخر بفهم جديد أو اكتشاف جديد يعود بنا إلى حالة الدهشة الأولى، والانبهار الأول أمام عِظم هذه الحضارة وهذا الإرث.

يتبيّن لنا من خلال النظرة الفاحصة لهذا التنوع المعرفي الذي رافق التنوع الوجودي، أن السعي إلى إقصاء الآخر ما

هو إلا محض وهم يجب التخلص منه، والخلاص لا يكون إلا بالوعي والانفتاح على معارف ذلك "الآخر"، الذي بدوره يرى فيَّ أنا "آخر"، ففي الحقيقة كُلنا "آخر".

علينا أن نعي يا عزيزي أن الآخر يوجد فيّ، في ذاتي، داخل عقلي، إنني أجد أحياناً في نفسي آخر غيري، كما إنني في مرحلة تعرّف واكتشاف دائم لذاتي، فكيف بالأحرى إذاً معرفة غيري "الآخر"، والحكم عليه وتقييمه وتصنيفه أيضاً؟ إننا للأسف نكرّس وقتنا وجهدنا في محاربة الآخر الذي لا نريد أن نكونه، وفي خضم ذلك ننسى أن نكون ما نريده نحن، إنني أحارب الصورة التي لا أريد، على حساب بناء الصورة التي أريد. الحاجة هنا أعظم ما تكون إلى إعادة ترتيب أولوياتنا بما يضمن لنا تحقيق خطوة إلى الأمام، فالوقوف تراجع، وإني لأجزم أن فهم الإنسان لذاته في المقام الأول هو أول هذه الخطوات، ذلك أن تقبّل الإنسان الفرد لنفسه ووعيه برغباته المتنوعة التي تكون في أغلب الأحيان متعارضة أو متباينة ومتغيرة، كما أنها تختلف من حالة إلى أخرى، ومن مرحلة إلى أخرى، بما يتناسب مع ظروف

الحياة ومقدار النضج والوعي، كذلك تقدّم الفرد وتغيّر أولوياته، وما يرافق ذلك من تغيّر في رغباته وأهوائه، فما كان مطلباً نبتغيه البارحة، ربما بات غير مرحّب فيه اليوم. وهذه دعوة مباشرة لكل فرد فينا أن يتعامل برفق ووعي مع كل ما هو مختلف ومغاير ومتغيّر قد يواجه على الصعيد الذاتي (الإنسان ونفسه)، والبين ذاتي (مع غيره من الأفراد).

إن التعامل بقدر من الرفق والوعي والتروّي، هو السبيل إلى تحقيق خطوة إلى الأمام، سواء تجاه الذات أو تجاه الآخر، إذ كيف يمكن أن تحدث تغيّراً في وعي غيرك وفكره، ذلك "الآخر" الذي تفترض أنه بحاجة إلى تغيير أو تصويب، إذ كنت تنوي إقصاءه أو عدم قبوله والتعامل معه؟ لتعلم إذاً يا عزيزي أن الإنسان قد يتغيّر بفعل أو تأثير عدد من العوامل التي قد لا تدركها الآن، وهو ما حدث مع الكثير من المفكرين والعلماء، وحتى الأفراد العاديين الذين تبنّوا مواقف ثابتة وصلبة تجاه قضية أو فكر أو مذهب ما لفترات طويلة، ثم عادوا عن مواقفهم وغيّروا توجههم لصالح موقف جديد أو لربما موقف مباين أو حتى مضاد لما كانوا عليه،

هذا التحوّل الذي كان يرى فيه البعض نوعـًا من الاستحالة أو عُدّ أنه غير ممكن، ثم ما لبث أن بات ممكنـًا ولـو بعـد حين. إذاً لنفكر معـًا، لو أننا رفضنا هذا الآخر المختلف أو أقصيناه أو لربما أعدمناه، كيف كـان لـه أن يختبر أو يمر بحالـة مـا أو موقف ما يكون من شأنه أن يؤثر في وعيه أو وجدانه، ويفضي به لإعادة التفكير في مواقفه أو آرائه، ويقـوده لاتخـاذ قـرارات وتبنّي مواقف جديدة ومغايرة لما كـان عليـه؟ يرافـق هـذا مـن تحوّل وتغيّر من شأنه أن يجعل من هذا "الآخر" ينتمي لذات الجهة التي أقف عليها وأنتمـي لهـا. إن كـان يجـول في ذهنـك أنك سوف تحاور هذا "الآخر" وتمهله وقتـًا ليتغيّر أو ليبـدّل موقفه أو رأيه أو اعتقاده، فهذا أمر حسـن، لكـن السـؤال هنـا، كم هي المدة الزمنية التي سـوف تمنحهـا لـه؟ ومـا هـو معيـار تحديد هذه المدة؟ وهل هـي مـدة محـددة، أي هـل هـي ذات المدة الزمنية مع الجميع؟ سـواء أكـان شـابـًا يافعـًا في مقتبـل العمر أم كان عالمـًا جليلاً في مجال علمه، أم فيلسوفـًا أم غيـر ذلك؟ ويمكن لي أن استمر في طرح السؤال تلو السؤال، إلـى أن نصل معـًا إلى القناعة بعبثية هذا الطرح وعدم جدواه.

المطلوب هنا ليس السعي نحو الوعي والانفتاح على الآخر، ومن ثم الاكتفاء بذلك فقط، المطلوب في حقيقة الأمر هو أن نتحلّى بالثقة تجاه ما نحمله من فكر أو اعتقاد أو مذهب، وأن فيه من الحقيقة والثبات والصدق والصحة والخير والصلاح ما يكفل له ويضمن أن الآخر الذي لا يتبنّى أو ينتمي لذات الفكر أو الاعتقاد أو المذهب، إن كان يبحث عن الحق والصواب فإنه في رحلة بحثه ومع الوقت سيصل إليه، سيصل إلى ما أتبناه وأنادي به، وما كنت أرغب بفرضه بالقوة والقسر، سيفرض نفسه بما يحمله من منطق وعقلانية وخير، وأن نثق أيضًا بالنتائج الإيجابية القابلة للتحقق على أرض الواقع، بسبب التطبيق العملي لهذا الفكر وانعكاساته أو أثره على الصعيدين الفردي والجمعي.

لنتفكر معًا عزيزي القارئ، إن كنت أحمل فكراً أو عقيدة ما، وأجزم أنه يحمل من الصواب والحقيقة والرقي الأخلاقي ما يؤهله أن يكون هو الفكر السائد أو حتى الفكر الأوحد الذي يحمله الجميع، ألا ترى معي أن مثل هذه الثقة بما أدّعي تفرض عليّ أنا حملاً كبيراً أولاً قبل أي شخص؟

ألا ترى أن الأجدر بهذا الاعتقاد أو المنهج أو المذهب الذي أتبناه وأقول به، أن يترك أثره أو أن يتجلّى ويتحقق في داخلي أولاً على الصعيد الذاتي، فيتمثّل في سلوكي العملي والأخلاقي، وأقدّم دليلاً حيّاً على ما يمكن أن يقود إليه على الصعيد الاجتماعي أو العلمي حتى، هذا التجلّي أو التمثّل الذي يجعل "الآخر" ينظر إلى ما أحققه من إنجاز أو نتاج على أرض الواقع في مختلف المجالات والحقول النظرية والعملية نظرة تدفعه وتحدث عنده الرغبة في التحول الفعلي والاعتناق الحقيقي والعملي لحمل ما أحمله، وأنتمي إليه من فكر أو مذهب ساهم في تكويني ورسم معالم الطريق لي، فكان محركاً يقودني إلى ما وصلت إليه وحققته على أرض الواقع وبمرأى من الجميع.

يجب أن تحمل الفكرة القدرة على أن تدافع عن نفسها أمام غيرها من الأفكار في منافسة عادلة، البقاء فيها للحقيقة واليقين والصواب، وأقصد بالعدل هنا، ألا يتم صون الفكر بموجب القانون والأعراف وسلطة أعداد معتنقيه والقائلين، إذ على الفكر أن يواجه الفكر دون حصانة مسبقة أو سلطة تميّزه أمام نظيره، إذ ليس الصواب حليفاً للطرف الأقوى أو

الأكثر عدداً، بل هو حليف ذاته، فالصواب يُطلب لذاتـه، وإن كان يملكه نفر واحد على امتداد الأرض كلّها.

أقدم لك عزيـزي الشـاب، واقـترح عليـك في هـذا المقـام نمطـًا أو أسلوبـًا جديداً من الحـوار، أُسـميه الحـوار العملـي، أو حوار النتائج، يقوم على التزام كل جماعـة أو كـل فـرد بمـا يعتنقه مـن فكـر علـى الصـعيدين النظـري والعملـي، أي علـى مستويي الفكر والفعل، ومن ثم نقوم برصد وتقييم نتـاج هـذه الانتماء أو الاعتناق على مستويين أولهما الفرد ذاته وعلاقتـه بالآخرين، وثانيهما الأثر المتحقق علـى أرض الواقـع وعلـى نمط السلوك. هو إذن حوار بنكهة براغماتية (مذهـب فلسـفي يربط صدق الأفكار بنتائجها العملية ومدى المنفعة أو الفائدة المتحصـلة منهـا)، مـع التأكيـد علـى أنهـا براغماتيـة اجتماعيـة وليست فردية، إنها ترنو نحو منفعة الجماعة وليس الفرد.

للتفكير والنقاش:

١) ما هي الثوابت المعرفية لديك؟

٢) ما هي المعارف التي تسعى لاكتسابها؟

٣) ما المعوقات التي يمكن أن تحول دون تحصيلك لعلم أو معرفة ما؟

الحوار

يثار مفهوم الحوار عند الحديث عن الآخر، وكثيراً ما يتردد للتأكيد على أهميته ودوره المحوري لبناء علاقة قائمة على الحوار والانفتاح مع هذا الآخر أو ذاك، لكن السؤال المُغيّب هنا، وقبل الشروع في البحث عن طريقة الحوار المطلوب وطبيعته التي نريد هو، من الشخص الذي يقوم بالحوار؟ أي الذي يقود الحوار، من المسؤول من حيث المبدأ عن بدء الحوار أساساً؟ ثم إن نتائج الحوار وبغض النظر عن طبيعتها هل هي ملزمة؟ ولمن يكون هذا الإلزام؟ من الجهة التي إن اقتنعت بنتائج هذا الحوار، فإن اقتناعها سيقود إلى أن يقتنع كل من ينتمي إلى الجماعة ذاتها؟ من هو الفرد الذي ينوب عن الكل؟ وهل يوجد أصلاً من هو كذلك؟ وقائمة الأسئلة تطول، ولا بدّ من الإجابة عنها، كي نتمكّن من الشروع في البدء بالحوار انطلاقاً من تهيئة أرضية صلبة وصالحة لهذه الغاية.

يجب أن نقف في هذا المقام عند مفهوم مهمّ آخر، يرتبط بالحوار والإشارة هنا إلى مفهوم أو فعل "الاعتراف بالآخر"، ذلك أن الاعتراف بالمكوّن الوجودي والمعرفي للآخر هو نقطة لا يمكن أن نغفلها في سيرنا على هذا الطريق، إذ كيف لي أن أحاور من لا أعترف بوجوده؟ وأودّ التأكيد هنا إن رفض الحوار مع الآخر أو إقصائه ورفضه كائنا من كان هذا الآخر، هو اعتراف ضمني بوجوده، وتأكيد لهويته وأفكاره واعتقاده، إذ كيف أرفض من لا وجود له؟ وكيف أختلف فكرياً أو عقدياً مع من ليس له فكر أو عقيدة؟ وانسجاماً مع هذا الوعي يصبح الحوار ليس باباً لفهم وقبول الآخر، وإنما تأكيداً للهُوية والذات.

يمكن لهذه الأسئلة أن تعود بنا إلى بداية الحديث، إلى تلك النقطة الأولى التي لا ضابط فيها ولا موجّه، وهو أمر على ما فيه من صعوبة أو إرباك إلا أنه ضروري للتأكيد على محورية تحديد المعيار والإطار المرجعي الموجه لفكرنا وسلوكنا، ونظراً لهذه الأهمية فلا مانع من مواجهة أي إشكالية أو صعوبة في سبيل الإجابة عن سؤال من هو الآخر؟

وكيف أحدده؟ وما معيار هذا التحديد؟ ليفرض إذاً السؤال الأول نفسه من جديد، وفي ضوء الإجابة وانطلاقاً منها يصبح بالإمكان الإجابة عن الأسئلة اللاحقة التي تظهر أو يتم طرحها تباعاً، ولأن الغاية هنا هي في المقام الأول قبول فكرة أو مفهوم التنوع والتعدد، وبيان ليس فقط ضرورته، بل حتميته أيضاً، ولا أقول أنني بصدد تقديم إجابة نهائية أو الإجابة الأمثل أو الأحق بالقبول، والأجدر بالتطبيق، لكنني أدّعي أني بصدد تقديم تصوراً أرى أن فيه من الانصاف والمرونة ما قد يجعل منه تصوراً أو طرحاً مقبولاً، وإنه قد يكون بديلاً عملياً وفعالاً للفكر الإقصائي الرافض للتنوع والاختلاف، وهذا يؤدي بي إلى الاعتراف بوجود الآخر وحقّه في الوجود.

يجب التأكيد هنا أن الاختلاف لا يعني بالضرورة الخطأ، فالميول والرغبات والمواقف والآراء تتباين وتختلف بعدد حامليها وبتعدد الظروف والبيئات التي رافقت نشوء أصحابها، إذ لا يخفى علينا الأثر الذي تسهم التنشئة والظروف التي أحاطت بها في تكوين الفرد وتشكيل وعيه

ونضجه. إذاً ما الاقتراح الذي نقدمه هنا؟ إنه الاحتكام للواقع كما بيّنا سابقًا، بمعنى الاحتكام للانعكاس الفعلي والنتاج العملي لهذه المنظومة أو تلك، وهذا الفكر أو ذاك، إنه التوجه القاصد والواعي الرامي إلى التتبع والرصد الدائم لأثر الفكر، أي فكر على القائلين به، وأثره على سلوكهم وأفعالهم، والغاية من وراء هذا الرصد هو تقييم السلوك الأخلاقي، والسمو الإنساني المتضمنين في السلوك العملي للفرد، ليس فقط مع من هم في ذات المنظومة التي ينتمي إليها، وإنما مع من هم خارجها، أولئك الذين يُطلق عليهم وصف "الآخر". يلي ذلك رصد حجم الإنجاز الإنساني والحضاري الذي يقدّمه الفرد أو الجماعة في ما يتضمنه من منجز ثقافي على كافة الأصعدة، وفي مجمل تجلياته الروحية والأدبية والفنية وغيرها.

نكرر مرة أخرى، الدعوة هنا للحوار وإعطاء الفرص المتكافئة، وليس للإقصاء، فإن كنت أثق بما أعتنق وأعتقد، وكنت أثق أيضًا بما أدّعي من علم أو فكر، فإنني بالتأكيد مدعو لتقديمه أمام الجميع في مواجهة عادلة تجاه أي فكر،

تاركـًا لقوة الحقيقة التي يتضمّنها هـذا الفكـر أن تكشـف عـن ذاتهـا، وتقـدّم نفسـها، وتعبّـر عنهـا، وأن تـدافع عـن صـوابها وصلاحها، دون قوى التدخل الخارجي المتمثّلة في قانون أو ترهيب أو إقصاء ورفض، فلا يجب على الفكر أن يُفرض بالقوة أو بحكم القانون وسطوة القـوة أو الخـوف، فحينها لا يكـون قبـول الفكـر نتاج فعل إنساني أو عقل حرّ، أي لـيس قبـولاً حـرّاً وواعيـاً أو تعبيـراً عـن إرادة سـوية، وإنما مواربـة وتسوية من نوع ما.

يفرض الفكـر نفسـه بواسـطة قـوة بنائـه الـداخلي وتـرابط مكوّناته ومفاهيمه التي تشكّل أساس مقوماتـه وركـائزه، كما يفـرض نفسـه مـن خـلال بيـان قدرتـه علـى تحقيـق المرامـي الأخلاقيـة السـامية التـي تمـس الإنسـان وتبغـي الخيـر العـام، كذلك يقاس الفكر بمقدار التقـدّم والتحضّـر الـذي يمكـن أن يحـثّ عليـه، ويحفّـز الفـرد والجماعـة المنتميـة إليـه نحـو تحقيقه. إن هذا هو الأثر المتوقع والمطلوب من أي فكـر، لا بل إنه الأثر الذي يجب أن يتركه، فالتـأثير في الجماعـة يجـب أن يكون حافزاً ومغيّراً لها نحو الأفضل، هكذا يفرض الفكـر

وجوده على أرض الواقع مسنوداً بصلاحه وخيريّة محتواه، وليس بحكم القانون أو القوة. على الفكر أن يفرض نفسه بقدرته على توجيه الطاقات والقوى المختلفة في إطار توافقي، وفي انسجام يصبو نحو تحقيق مختلف الأهداف والغايات، بما يتناسب مع أصحابها، ودون تعارض يفضي إلى نزاع أو فشل في المجتمع، يكون ناتجًا عن عجز الفكر السائد عن احتواء الألوان والأطياف المختلفة معه، إذ لا يخفى علينا مقدار الطاقات والامكانيات التي لم تستخدم، وأهدرت بسبب عدم معرفة طريقة توظيفها.

لهذا علينا عزيزي القارئ أن ندرك بأن الدولة باعتبارها الجهة أو السلطة المنظمة للمجتمع بكل ما فيه من تنوعات، هي المسؤولة عن تهيئة الأوضاع والظروف التي من شأنها أن تسمح للأفراد بتنمية قدراتهم إلى أقصى حدّ ممكن، وبالتأكيد ما يُقال على الدولة أو السلطة يُقال على أي منظومة فكرية أو اعتقاد يريد أن يقدّم نفسه كفكر موجّه أو سلطة مسيّرة للجماعة أو للمجتمع، إذ عليها ليس فقط أن تُسيّر وتُيسّر أمور الأفراد المنتمين إليها والقائلين بها، إنما هي

مدعوة إلى المساهمة في نموهم ومساعدتهم لتحقيق أقصى ما لهم من إمكانات، وهذا يشمل بالضرورة الأفراد الذين لا ينضوون تحت لواء هذا الفكر أو ذاك، فلا يوجد مجتمع أحادي التكوين أو ذو طيف واحد يجمع كل من فيه، ولهذا فإن أي منظومة فكرية سائدة عليها أن تقدّم في ثناياها تصوراً لكيفية التعامل مع هؤلاء الذين لا يعتقدون بها.

أكاد أجزم أن من أهم معايير الحكم على أي منظومة فكرية أو حضارية هو كيف تُعامل هذه المنظومة من يخالفها وينتمي لغيرها، فإن كُنا نقبل من يشبهنا ونرفض ونُقصي من يُخالفنا فأي فضل لنا وأي تحضّر ورقي لسلوكنا؟ ألا يفعل الجميع هذا؟ إن كُنا سنكرّس وقتنا للقضاء على كل من لا يشبهنا أو مختلف عنا، وقام الآخرون بفعل ذات الأمر، ألا تعتقد معي أيها القارئ العزيز أنّ الخراب والزوال هو المصير الحتمي للمجتمع ولجميع من فيه على اختلاف مكوناتهم وانتمائهم، فإن كنت عاجزاً عن رؤية حالة التكامل التي يجب أن تكوّن المجتمع وتحكمه، وتؤدي إلى رفعته من خلال الاندماج والتناغم بين مكوناته المتنوعة والمختلفة، فإنني بلا

شك أعمى العقل والعين (البصر والبصيرة). لنتأمل معًا أثر التقدّم والإنجاز الإنساني على امتداد الأرض، كيف يتم معالجة طفل في قرية معزولة في غابات أفريقيا من دواء صنعه أخوه الإنسان في قارة أخرى. كيف نأكل في الشمال ما يزرعه أخي الإنسان في الجنوب، ننسج هنا ويلبس الإنسان هناك، أفكّر هنا ويتقدّم الإنسان في كل مكان. علينا أن نعي يا عزيزي، أن لا حدود للرفض والإقصاء، ولا حدود للخراب والدمار، لكن لا يجب أن يغيب عنا أن لا حدود للبناء أيضًا، ولا حدود للتعاون، ولا حدود للقبول والتسامح، والأهم لا حدود للحب.

مطلب الانفتاح وقبول التنوع لا يأتي منفرداً، كما أنه ليس دافعًا يحرك الإنسان لفعل أو سلوك ما، إنما هو نتيجة ذلك أن قابلية الإنسان وقدرته على فهم مطلب الانفتاح وإدراك التنوع والاعتراف بالآخر هو في حقيقة الأمر مؤشر نضج ووعي؛ لأن هذا السلوك الإنساني لا ينتج إلا بالتزامن مع حالة أو درجة من النضج تتيح لصاحبها أن يرى في هذه المفاهيم جزءاً من تكوينه وبنائه الشخصي، وهو ما يدفعه ويحركه لممارستها إدراكًا منه ليس فقط لأهميتها وإنما لتجذرها وحتمية وجودها.

ولا بأس في ألا يكون هذا النضج حالة عامة أو سائدة في المجتمع ككل أو بين السواد الأعظم من أفراده، إذ يمكن البدء بفئة ما أو جماعة ما في البداية باعتبارها نواة أو بذرة قابلة للتوسع والنمو والانتشار، فئة قابلة للزيادة. ما يهم عزيزي القارئ أن نكون على الطريق الصحيح حتى وإن كنا في بدايته، وعلى رغم من أن التنوع والاختلاف أمر حتمي، إلا أنه ليس بديهي، لهذا فإن حجم التوقعات ومقدارها يجب أن يكون متناسباً مع واقع المجتمع ودرجة وعيه ومقدار نضوجه، فالغاية ليست تجميل الواقع وإنما تشخيصه وبيان مواطن الخلل فيه للعمل على محاولة إحلال ما هو صائب وصحيح بدلاً منه، وهذا الإحلال أو التحول لا يمكن التأسيس له أو نشره (تسويقه) اجتماعياً بالاعتماد على مقدار الوعي والنضوج الفكري أو العقلي فقط للأفراد المكونين للمجتمع، لما بين الأفراد من تفاوت واختلاف، لذا وجب أن يُقدم في إطار عملي نفعي، أي بيان الفائدة أو المنفعة المتحققة للمجتمع نتيجة لفهم حتمية التنوع.

الاكتفاء بترداد ما هو صحيح وما يجب أن يكون لا أعتقد أنه سيفضي إلى قبول المجتمع له والأخذ أو العمل به،

ومرد ذلك مقدار التباين في مستويات الوعي كما أشرنا، واختلاف محددات السلوك، وبواعث الأفعال في المجتمع الواحد، لهذا تظهر الحاجة إلى بيان الفائدة العملية أو المصلحة المتحققة من هذا الطرح، ليمثل أمامنا من جديد الحالة الحضارية في منطقة الهلال الخصيب ومدى تفردها وغناها على شتى الأصعدة لما فيها من تنوع وتباين، ولما حققته من تناغم وانسجام.

ولنا في تأمل السوق أو المحال التجارية مثالاً يؤكد لنا هذه الضرورة في التنوع، فالإنسان متى رغب في التزود بحاجاته وتوجّه للسوق لهذه الغاية وجد أنه لا يستطيع أن يلبي أو يتحصل على كل ما يريد من حاجيات أو خدمات من ذات المكان أو محال من نمط أو طبيعة واحدة، إذ يحتاج للبقال، واللحام، وبائع الخضار، والخياط والنجار، وهكذا، والسؤال هنا لماذا لا نجد أية مشكلة في هذا النمط أو النوع من الاختلاف؟ لا بل إننا نرى أنه ضروري ومطلوب أيضًا لتحقيق الاكتمال وسدّ الحاجات، فلا يمكن أن تُلبى الاحتياجات المختلفة بواسطة أو من خلال مصدر واحد ذات طبيعة محددة.

يحقق الإنسان أحد أهم إنجازاته حين يختار الجانب الصحيح، وحين يحدد الفريق الذي ينتمي له والغاية التي يسعى للوصول إليها، لكن كيف له أن يعي أو أن يكون على ثقة بأنه قد اختار بالفعل الجانب الصحيح؟ والجواب مرتبط بالإنسان ذاته، إذ أن الإجابة ترتبط بالنية الصادقة والخيرة، وبالإرادة الحسنة، الأمر الذي ليس لأحد أن يتحقق منه إلا الإنسان ذاته، وبهذا فإن كانت الغاية تصبو للبناء والتقدم، وتصبو للخير، وإحقاق الحق والعدل، وكانت ترفض الظلم والقمع، فحينها يا مرحبا بهذا الفكر ويا أهلاً بأصحابه.

عزيزي الشاب، إن توزيع البشر ممتد جغرافيا ومتباين جداً، ففي حين نشهد انتشاراً لدين أو مذهب أو فكر ما في بلد فيه عشرات الملايين من الناس، وفي المقابل قد نشهد خلو بلد أخر من ذات الدين أو المذهب أو الفكر، وينتشر فيه منظومة أخرى يتبعها عشرات الملايين أيضًا، ومن نافلة القول التأكيد على أن لكل منظومة علماءها ومفكريها وشيوخها ومريديها واتباعها والخارجين عنها، ووضع في التبرير لها والدفاع عنها الكثير من الكتب والمؤلفات

والأبحاث والدراسات، ويُساق هذا الأمر على أي منظومة قائمة في أي مجتمع إنساني، فكل منظومة قائمة في مكان ما فيها من المقومات ما جعل من قيامها أمراً ممكناً ومقبولاً لدى طيف واسع من الأفراد، قد يصل عددهم لمئات الأشخاص وأحياناً لمئات الملايين، لهذا يا عزيزي، فإن موقفك تجاه ما تعتقد به وتراه صحيح، وتأخذك الدهشة والاستغراب كيف يمكن لعاقل ألا يأخذ به؟ وترى أيضاً أن فيه من الوضوح ما يكفي لبيان صدقه والدلالة على فحواه، هو بالضبط ما يراه "الآخر" فيما يعتقد ويتبنى، ويأخذ عليك عدم رؤيتك لما هو واضح وجلي من وجهة نظره.

لا يعني هذا أن كل الآراء سواء، وكل الأفكار حق، لكن الإشارة إلى أن موقف الشخص القائل أو التابع لأي فكر، يتشابه على الصعيد المعرفي والوثوقي، حيث يرى أن ما يقدمه ويقول به، هو ما يجب على الآخرين أن يقبلوه ويقولون به أيضاً. وعليه، يجب أن نكون واعين هنا إلى أن التابع الحقيقي والمنتمي الفعلي لأي مذهب أو منظومة فكرية أو علمية او عقائدية، يجب أن يكون هذا موقفه، فإن

لـم يكـن علـى يقـين وثقـة بـأن مـا يعتقـد بـه ويعتنـق هـو حـق وصواب، فكيف له إذا أن يقبله وينتمي إليه من حيث المبدأ؟ والحـال هـذا يمكـن أن يقـال علـى غيـره مـن الأمـور سـواء سـلوكيات أخلاقيـة أو اجتماعيـة وحتـى أنظمـة سياسـية واقتصـادية وغيرهـا، وفي ضـوء هـذا الفهـم ومـع الأخـذ بعـين الاعتبار موقف جميع الأطراف يكاد لسـان حالنـا يقـول: بـأن الجميـع علـى صـواب والجميـع علـى خطـأ في الوقـت ذاتـه، وهذا بالضرورة مُحال.

نستحضـر هنـا الفيلسـوف الإغريقـي بروتـاغوراس Protagoras (٤٢٠ – ٤٨٧ ق.م)، الذي ذهب إلـى القـول بـأن ما تراه أنت حقيقة فهو حقيقة بالنسبة لك، وما أراه أنـا حقيقـة فهو حقيقة بالنسبة لي. إنه هنا جعل معيار الحقيقـة ذاتيـًا إلـى أقصى حدّ، للدرجة التي بات بإمكان كل منا أن يدعي امتلاك الحقيقة وناصية الصواب، لكـن ديناميكيـة الفكـر الفلسـفي – أي فعاليتـه وحركتـه الدائمـة– حالـت دون اسـتمرار هـذا الموقف ليتم تجاوزه، ويُشار إليه باعتباره موقفـًا تاريخيـًا يُثار الحديث عنه في إطار البحث في نظرية المعرفة وفلسـفة العلـم

ونظريـة الحقيقـة، مـع الإشـارة والتأكيـد الـدائم علـى الضـرر النـاتج عـن قبـول هـذا التصـور وتبعياتـه علـى حيـاة الأفـراد والمجتمعـات الإنسـانية، لـيس علـى الصـعيد المعـرفي فقـط، وإنما في مباحث أخرى كالأخلاق على سبيل المثال، إذ كيف يمكـن القبـول بـأن الجميـع علـى صـواب والجميـع يمتلـك الحقيقة، الأمر الذي سنثيره لاحقـًا، ونقف على تبعياته بشيء من التفصـيل، لكـن علينـا أن نقـف عنـد هـذا الفعـل الفلسـفي باعتباره درسـًا لا بل منهجـًا يجب الأخـذ بـه وتعميمـه، ذلـك أن البناء الداخلي للفلسفة وتركيبها البنيوي أتاح لها أن تقـف على أخطائها وتصوبها وتتجاوزها، فالفلسفة التي يمثل النقد أحد وظائفها الرئيسة، تمارس النقد على أوسع نطاق ممكـن ابتداءاً من نقد الذات، وهذا ما يحفظ لها مكانتها ويتيح لها أن تستمر علـى امتـداد قـرون مـن الزمـان وفي مختلـف الأمـاكن، وبما يتناسب مع مختلـف العقـول والبيئـات على الـرغم مـن التباين الكبير والتغيّر الدائم في الزمان، والمكان، والعقل.

تمارس الفلسفة دورها في تشخيص الواقـع للعمـل علـى تحليله والكشف عـن مـواطن الخلـل فيـه، وهـذا يُتيـح لهـا أن

تقدم تصوراً للأهداف التي تسعى للوصول إليها وتحقيقها، ويرافق هذا السعي بيان الطريق الذي من شأنه إذ ما سرنا عليه أن يقودنا ويصل بنا إلى التصور الذي نريد، فالغاية ليست النقد أو التحليل أو الهدم فقط، بل هذه جميعها تمثل نقطة الانطلاق أو البداية نحو التركيب والبناء، وأمام هذه الغاية يتسع صدر الفلسفة لقبول كل الآراء والأفكار والمواقف دون إقصاء أي منها أو رفضه مسبقًا، والقول بأن الفعل الفلسفي يقبل هذا الطيف الواسع جداً من الأفكار والآراء دون رفض أي منها، هو قول يقتصر على معنى عدم الرفض المسبق فقط، أي أنه لا يعني قبوله واعتناقه والأخذ به بالضرورة، فالمراد هنا هو إعطاء فرصة لأي طرح وكل تصور كي يخضع للتفكير والمحاكمة العقلية، فالإشارة هنا إلى أن نقطة البداية تتسع للجميع لكن الاستمرار ليس كذلك، فالعقل الفلسفي يمارس أدواته على كل ما يطرح من آراء ومواقف بما في ذلك آراء ومواقف الفكر الفلسفي نفسه، لهذا لا يحمل إلا ما يستقيم من الرأي والعلم والاعتقاد، وهذا لا يقود إلى نهاية ذات بعد واحد أو لون معرفي أو

منهجي واحد، بل يتسع ليحتوي كل ما كان متّسقًا وسليمًا مع العقل.

للتفكير وللنقاش:

١) ما هي الصفات التي لا ترغب في أن تكون عند الشخص الذي تحاوره؟

٢) هل لك أن تتحقق إن كان لديك أي من هذه الصفات؟

الاتساق

الناظر إلى تاريخ الفكر سيتبين له بسهولة كبيرة مقدار التنوع الذي نشأ في كنف الفلسفة، إذ وجد لها مدارس وتيارات ومذاهب كثيرة ومتعددة ومتنوعة، وفيها من التباين والاختلاف بين بعضها بعضاً الكثير الكثير، حتى بات بالإمكان الاختصاص في الدراسات المقارنة بين هذه الاتجاهات، وعلى رغم من أن هذه التيارات والمذاهب في الإطار العام تلتقي عند طرح السؤال والسعي الجاد للإجابة عليه، كما تلتقي عند اعتبارها للإنسان قيمة عُليا، إلا أنها تختلف في الإجابات التي تقدّمها والمناهج التي تتبعها وتطبقها، وبالتأكيد هذا لا يكون على حساب الترابط والتناغم بين الأفكار أو المواقف التي تُشكل مذهباً مستقلاً ومتمايزاً عن غيره من المذاهب، فالنسق الشديد الترابط هو من أبرز ميزات المذهب الفلسفي، ومما يميزه عن غيره من المذاهب التي لربما لا ترتقي لدرجة تؤهلها بأن تنعت بأنها مذهب أو تيار فلسفي أو فكري.

تقدّم الفلسفة درساً جديداً واستثنائياً في أهمية الاتساق، وتسلط الضوء على ضرورة الوقوف عند مطلب الترابط على صعيد البنى الداخلية المكونة للمذهب أو الاتجاه، ومن شأن هذه الميزة أو المطلب، إذا ما تم ممارستها وتطبيقها من الأفراد الذين ينتمون لهذا الاتجاه أو ذاك أن يُسهم في تنقية أي منظومة فكرية من أي شوائب علقت بها أو تسللت إليها وباتت تعد جزءاً منها، وما يمكن أن ينتج عن ذلك من تشوهات على الصعيد النظري وانعكاسه بطبيعة الحال على الصعيد العملي. يتحقق ذلك من خلال العقل النقدي الذي سبق وتكلمنا عنه، فالنقد يمثل أحد أهم أدوات العقل التي لا يجب أن يتوانى الفرد في استخدامها وتطبيقها، حاله حال كل الأدوات العقلية الأخرى.

يُشار هنا إلى أن الاتساق هو أحد الشروط التي شكّلت مذهباً أو اتجاهاً مستقلاً في مبحث الحقيقة يعرف بنظرية الاتساق (Coherence theory of truth)، والحقيقة هنا تصبح مرتبطة بالاتساق المنطقي الذي يمكن أن يربطها بغيرها من الحقائق أو الاعتقادات التي لدينا حول أي موضوع أو

موقف، وهذا مؤشر عملي للدلالة والتأكيد على أهمية الاتساق والترابط في البناء المعرفي، وهو أيضاً مؤشر ضروري ويجب الأخذ به عند التحليل أو النقد لأي مذهب أو تيار، فالمقومات التي يجب توافرها في عملية البناء، هي ذاتها ما يجب أن نرصدها لغايات التحليل والنقد.

قد يتبادر إلى ذهنك عزيزي القارئ أن تتساءل، لما هذا التركيز الكبير على الاتساق في هذا المقام وإلى هذه الدرجة؟ وهو سؤال مشروع بالتأكيد، بل إنه سؤال مطلوب وضروري، ذلك أنه سيكون باباً نعبر من خلاله إلى تساؤلات أخرى لا تقل أهمية عنه، تساؤلات من شأن الإجابة عنها أن تضعنا أمام التزام أخلاقي وإنساني، فإن كانت الدعوة فيما سبق للوقوف على هذا المطلب في جانبه النظري (التحليلي)، فالدعوة مضاعفة والمطلب أكثر إلحاحاً للوقوف عليه في جانبه العملي، والمقصود هنا تمثل مطلب أو شرط الاتساق في حياة الأفراد إذ كيف يمكن أن يتسق مطلبنا باحترام الآخرين لنا وتقديرهم لمقدساتنا الروحية وعاداتنا وتقاليدنا وأفكارنا وغيرها من المطالب، دون أن

نبـادلهم ذات الاحـترام والتقـدير في ذات المحـاور وذات المطالب؟ كيف يتسق في عقلنا أن قومـاً أو عرقـاً مـا، أفضـل من غيرهم لمجرد أنهم ينتمون لهذا العرق أو تلك القوميـة؟ وفي المقابل نُصادر على الآخرين أن يـذهبوا ذات المـذهب؟ كيف نطلب لأنفسنا ما نصادره على غيرنا؟ وكيف يحِلُّ لنا ما يُحرّمُ على الآخرين؟ والأمثلة تطول، ولك يا صديقي أن تسترسل في ذكرها واستحضارها في ذهنك، واستخلاصها من واقعك الذي للأسف بات يزخر بها.

لا يفوتنا التأكيد مرة أخرى، أن الاطلاع على أي موقف أو تحليله لغايات معرفته وفهمه، لا يعني بالضرورة قبوله أو الأخذ به، كما لا يعني أيضاً أنه صائب، لكن لا بد من هذا الاطلاع وهذا التحليل، إذ كيف لنا أن نعرف إن كان صائباً أو غير صائب دون الاطلاع عليه وتحليله ومحاكمته؟ ولا يغيب عنا أننا حين نطالب بمحاكمة ما يصل إلينا من الآخرين، فإن للآخرين ذات الحق في أن يحاكموا ما يصل إليهم من أفكارنا ومذاهبنا ليقرروا طبيعة موقفهم منه. يكشف هذا لنا مقدار التنوع الممكن في الأحكام انطلاقاً من

التنوع في المعايير، إذ تختلف المعايير التي يتم تطبيقها على ذات الأفكار والمذاهب والتيارات والمواقف، ومن شأن هذا أن يقود إلى نتائج مختلفة، ويجب الانتباه هنا ولفت النظر إلى أن هذا الاختلاف ليس تناقضاً بالضرورة، لهذا لا يجب إعدام كل النتائج سعياً للحفاظ على نتيجة واحدة فقط، إذ يمكن الإبقاء على عدد من النتائج معاً، وإن كانت مختلفة أو متباينة طالما أنها لا تتناقض، فالتناقض سيؤول في نهاية المطاف إلى صواب وصدق أحدها مقابل خطأ وعدم صواب الآخر، فلا يمكن أن يكون الرأي ونقيضة كلاهما صائب.

تُلقى الفلسفة لنا من جديد طوق النجاة للخروج من هذا المأزق، وهذه المرّة طوق النجاة جاء على شكل منهج أو طريقة عملية أثبتت صلاحها على مرّ التاريخ بشكل واضح وجلي، فالسؤال صديق وفيّ للإنسان، لم يفارقه منذ بدء وجوده، وإن اختلفت صيغة السؤال ونضج فحواه أو محتواه ودرجة تعقيده من زمان لآخر، ومن مكان لآخر، فمرد ذلك أن السؤال يجيء متناسباً ومعبراً عن تقدّم الإنسان ونضوج

وعيـه، كـذلك حافظـت عـدد مـن الأسـئلة علـى مكانتهـا فاستمرت لفترة أطول من غيرها، خاصة إذ ما ارتـبط السؤال بجـانبي الإنسـان الأهـم أي الجانـب الوجـودي والجانـب المعـرفي، وبعـد هـذا مـا لبـث أن حظـي السـؤال الأخلاقـي والسـؤال الجمـالي بمكانـة مرموقـة ارتبطـت بتقـدم الإنسـان وارتقاءه، وبالعودة إلى التجربة الفلسفية والمثال الذي تقدمه لنـا في ممارسـتها النقـد الـذاتي ومراجعـة مواقفهـا وإجاباتهـا الخاصة على التساؤلات التي تطرحها، فإنها تقدم مثالاً أيضـاً في رحابـة صـدرها وسـعة قبولهـا للإجابـات المتنوعـة التـي تقدمها المذاهب والتيارات والاتجاهات الفلسفية المختلفة، وهـذا يبـيّن ويؤكـد كيـف تسـاهم الديناميكيـة العمليـة للبنـى الداخليـة المكوّنـة للفكـر والمـنهج الفلسـفي في تنقيـة هـذه النتائج، فيسقط بعضـها بسرعة تفـوق سرعة سقوط بعضـها الآخر، ليبقى ويصـمد مـا يحمـل في داخلـه مقومـات صـموده وبقائه وصلاحية قبوله على أرض العقل والمنطق.

للتفكير وللنقاش:

١) هل لك أن تراجع أفكارك وترى إن كان هناك عدم اتساق بين أي منها؟

٢) تأمل بعض مواقفك، وآرائك، فكّر في ردود أفعالك، هل ترى فيها اتساق أو عدم اتساق؟

السؤال المعرفي مثالاً

نقدم بهذا الصدد مثالاً عملياً يعود إلى بدايات الفكر الفلسفي، والإشارة هنا إلى السؤال المعرفي الذي يُعد من أقدم الأسئلة التي أثارتها الفلسفة، إذ شكّلت المعرفة والبحث فيها جانباً مهماً في البحث الفلسفي منذ بدايات تشكّله حتى يومنا هذا، والحديث هنا يعود إلى ما يزيد عن ألفي عام، وهذا بحد ذاته أمر يدعو للتساؤل، إذ كيف لسؤال أن يبقى قائماً ومطروحاً للبحث على امتداد هذه المدة الطويلة جداً، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار عدد المرات التي حاول فيها الإنسان أن يقدم إجابة على هذا السؤال، أي أنه لم يكن سؤالاً مهملاً أو غير خاضع للبحث، ولهذا بقي بلا إجابة كل هذه المدة، بل على العكس تماماً، فهو سؤال محوري في تاريخ الفكر الإنساني، وقد تعددت المذاهب والاتجاهات الفلسفية التي تصدّت لتقديم أفضل إجابة ممكنة على هذا السؤال المعرفي، ونظراً للتفاوت في طرح السؤال بما يتوافق مع مقدار النضوج العقلي والتقدّم

الإنساني، فالإجابة أيضـاً كانـت متوافقـة ومنسـجمة مـع ذات المعيار، ولهذا كانت الاجابات تتفاوت في مـدى معقوليتها ومنطقيتها، كذلك مدة صلاحها أو فترة ديمومتها، فما كان مقبولاً في زمان ما قد لا يكون مقبولاً في زمان آخر، آخذين بعين الاعتبار أن تقييم الإجابات يجب أن يكون في ضوء الإطار الزمني الذي قُدّمت فيه، ووفق معايير عصرها دون إسقاط أو إعمال لمعايير اليوم لمحاكمة طرح الماضي، إن ما نرى فيه اليوم أو نطلق عليه تصوراً بدائياً، قد يكون تصوراً أو طرحاً تقدمياً وثورياً في زمانه، ولنا في تقديم الإجابة على السؤال المعرفي في صيغته الأيونية - نسبة إلى منطقة أيونا في الحضارة اليونانية القديمة، والتي قدّم عدد من فلاسفتها إجاباتهم على السؤال المعرفي- "من أين أتى هذا كله"؟ أو محاولة تفسير "نشأة الأرض" مثالاً على ذلك، إذ أننا نرى في الإجابة التي قدّمها طاليس الأيوني، القائلة بأن الماء هو أصل هذا الوجود، وسبب تكونه إجابة فاصلة في التاريخ الإنساني، ونقطة تحوّل بين ما سبق هذا الطرح وما لحق به، أي أنه طاليس الأيوني كان خاتمة عهد وبداية عهد جديد، الأمر الذي لا بدّ أن يكون سبباً لاندهاش البعض إن لم يكن سبباً

في اندهاش السواد الأعظم من الناس، إذ كيف يمكن لمثل هذا التصور القائل إن الماء هو أصل هذا الوجود أن يحظى بهذه الأهمية والإشادة؟ لكن متى علمنا أن هذه المكانة تأتي من كون طاليس في إجابته هذه غير منحى أو نمط التفكير عما هو سائد، فإن الاندهاش يخفت، فقد كانت الإجابة الميتافيزيقية (غير المادية، غير الحسية) هي التي تتصدر المشهد المعرفي، إذ يتم تفسير كل الظواهر والإجابة على كل التساؤلات من خلال ردّها إلى أسباب غير حسّية أو غير مادية (ميتافيزيقية)، ونسبها إلى آلهة تتحكم بها وتسيّرها، إذ يكون كلّ إله مسؤولاً عن ظاهرة ما، أو كان يتم ردّها إلى أساطير وخرافات، لتتحول الإجابة مع طاليس إلى ما هو فيزيقي (مادي، حسي)، ولهذا كانت إجابته التي ردّت جميع الأشياء إلى الماء إجابة تهبط بالإنسان من عالم مفارق أو لا مادي إلى عالم مادي وحسّي، وما تبع ذلك من تأثير على طبيعة ونسق الإجابات التي يتم تقديمها لوضع أفضل إجابة ممكنة على السؤال المعرفي القائل من أين أتي هذا كله؟

تبع ذلك تصوراً أكثر تركيباً وتعقيداً مع انكسماندر Anaximander (٦١٠– ٥٤٦ ق.م) الذي أرجع الظواهر كلها

إلـى مـادة أوليـة أسـماها أبيـرون (Apeiron) أي اللانهـائي أو اللامحـدود، وكـل مـا في الوجـود مـا هـو إلا مـادة لحقـت بهـا صـورة، ومـا كـان لهـذه الصـور أن توجـد إلا بالانتقـال مـن اللامحدد إلى المحدد، وهـذا الانتقـال يتحقـق عـبر الحركـة، وللعلاقة بين الاضداد دور فاعل في هذا التشكل أو التركيب، وانطلاقـاً مـن هـذا الفهـم نـتج أو تشـكل القـول بالعناصـر الأربعة، التي ما أن ظهرت في الفكر الإنساني، حتـى بـات لهـا مكانة فريدة استطاعت أن تحـافظ عليهـا في الفلسـفة، وألقـت بظلالهـا أيضـاً علـى الأدبيـات العلميـة والأدبيـة، ويقصـد بالعناصـر الأربعـة: الـتراب (الجـاف)، والمـاء (الرطـب)، والهواء (البارد)، والنار (الحار). ويمكـن لك عزيزي القـارئ أن تلحظ هنا مقدار التطور أو القفـزة النوعيـة التـي حـدثت في التفكير الإنساني خلال مدة زمنية قصيرة نسبية، وهـذا بفضـل طاليس وما قام به من نقلة من عالم ما وراء الطبيعة إلـى عـالم الطبيعة والمادة، رغم بساطة طرحة في حينه أو لربما يمكن أن نقـول سـذاجته، خاصـة إذا قارنـاه مـع النظريـات العلميـة في عصرنا الراهن، ولم يقف الأمر هنا بل استمر مع ديمقـريطس Democritus (٤٦٠ – ٣٧٠ ق.م)، صـاحب النظريـة الذريـة

التي قدّم من خلالها موقفة القائل بوجود عدد لا نهائي من الجواهر المادية (التي يتكون منها كل ما في الوجود) تسبح في محيط لا نهائي من الخلاء (قبل التشكّل في الوجود)، ثم زادت درجة النضوج في الإجابات التي تقدّم في هذا المبحث ليطل علينا فيثاغورس Pythagoras (٥٧٠- ٤٩٥ ق.م)، ومدرسته من بعده، وتقدّم رؤيتها القائمة على النِسب والتوازن بين الموجودات، ثم تبع ذلك موقف كل من أفلاطون Plato (٤٢٧- ٣٤٧ ق.م)، وأرسطو Aristotle (٣٨٤- ٣٢٢ ق.م)، اللذين شكلا نقطة تحوّل وعلامة فارقة في تاريخ الفكر الإنساني لما قدّماه من إضافات نوعية وسبّاقة، حتى بات من غير المبالغ فيه القول إن ما قدّماه ترك أثراً حيّاً حتى يومنا هذا، ويكفي القول إن افلاطون هو المؤسس الحقيقي للمذهب المثالي العقلاني (الميتافيزيقي)، وإنه قدّم نسقاً متكاملاً في فهم وتفسير الوجود، سواء الوجود العاقل (الإنسان) أو الوجود الطبيعي، واستطاع من خلال هذا النسق المتكامل أن يجيب عن الأسئلة المعرفية من بيان طبيعة المعرفة ومصدرها وسبل تحصيلها ومعيار صدقها، وقدّم موقفاً في الأخلاق والحقيقة أيضاً بالاعتماد على العقل

المجرد، ليؤسس بذلك المذهب المثالي العقلاني، الذي لا يزال حتى يومنا هذا أحد أهم المذاهب التي تفرض نفسها ومنهجها على طرائق التفكير الإنساني سواء على صعيد السؤال المعرفي أو الأخلاقي أو غيرها، ومما ساهم في بقاء المذهب المثالي كل هذه المدة ليس فقط الإطار الذي قُدّم به، على رغم من الأهمية الكبيرة لهذا السبب إلا أن التطور الذي لحق بالمذهب، والتنوع الكبير في طروحاته كان له دور مهم ومحوري لا يمكن غضّ النظر عنه، فلا يغيب عن القارئ دور رينيه ديكارت (١٥٩٦- ١٦٥٠) على سبيل المثال في الفلسفة الحديثة في إثراء موقف التيار العقلاني المثالي، والمنهج الشكي الذي قدّمه وساهم في رسم معالم البحث والبناء المعرفي القائم على منهجية حيّة تتطور وتتفاعل مع موضوع المعرفة والذات الفردية، ثم ما تلى ذلك من إضافة نوعية وقيمة على يد إيمانويل كانط (١٧٢٤- ١٨٠٤) الذي قدّم طرحاً مزج فيه بين ما هو عقلي وتجريبي، وخلص إلى تقديم أو نحت مفردات جديدة ما كان يمكن الربط بينها سابقاً، والقائمة تطول بأسماء منيرة ومؤثرة في سماء الفلسفة، الأمر الذي أسهم في تقدّم المذهب العقلي

ومجاراته للعقل الإنساني في مختلف مراحل تطوره وتقدّمه بما يتناسب ويتوافق معه.

ولا يخطر في ذهن أي منّا أن هذه المكانة والاستمرارية للمذهب العقلاني كانت لعدم وجود مذاهب أو لعدم وجود تعدد في الآراء والمواقف، بالتأكيد لم يكن الأمر كذلك، إذ أن المذهب التجريبي الذي أرسى أرسطو دعائمه كان دائماً في المرصاد، حاضراً ومدافعاً عن توجهه وموقفه في معالجة ذات الأسئلة بما يتوافق مع منهجه الخاص، ليقدّم لنا إجابات تختلف وتتباين إلى الحدّ الذي يهيئ لنا أنها تكاد تصل في بعض الأحيان إلى التناقض، وليس فقط الاختلاف مع المذهب العقلي، ونلفت النظر هنا إلى أن ما قيل على المذهب المثالي، يُقال أيضاً على المذهب التجريبي (المادي)، من الحفاظ على مكانته خلال فترات زمنية مختلفة، استمرت منذ نشوء المذهب إلى يومنا هذا، وساهم كل من الفلاسفة التجريبيين اللاحقين في تحقيق هذه المكانة، والمحافظة عليها أمثال: جون لوك (١٦٣٢- ١٧٠٤)، وفرانسيس بيكون (١٥٦١- ١٦٢٦)، وديفيد هيوم

(١٧١١- ١٧٧٦)، فلم يقتصر الأمر على أرسطو مؤسس المذهب ولم يتوقف عنده، ومن جديد لا يخطر في بال القارئ أن هذين التيارين فقط، قد استحوذا على العقل الفلسفي وميدان البحث فيه، نعم لا نستطيع أن ننكر أنهما كانا أكثر المذاهب الفلسفية الوازنة والحاضرة على الدوام إلا أننا لا يمكن أن نغفل عن اتجاهات أو مذاهب كان لها ثقلها في ساحة البحث الفلسفي كالمذهب الحدسي، الذي يُعد هنري بيرغسون (١٨٥٩-١٩٤١) من أبرز رواده إذ قدّم المعرفة الحدسية التي تعتمد على الوجدان والحس الباطني باعتباره مصدر المعرفة، ونذكر أيضاً المذهب البراغماتي (العملي)، ورواده تشارلز بيرز (١٨٣٩- ١٩١٤) وجون ديوي (١٨٥٩- ١٩٥٢) ووليم جيمس (١٨٤٢- ١٩١٠)، والقائم على أن المعرفة ترتبط بالآثار العملية على أرض الواقع أي تطبيق الأفكار ورصد مقدار نجاحها في التطبيق الفعلي في الحياة وآثارها العملية.

وقد بلغت الفلسفة من الاتساع والرحابة ما جعل المذهب الواحد فيها يشتمل على تيارات متنوعة، فالصورة العامة يتقابل فيها المذهب المثالي مع المذهب التجريبي، ثم بات بالإمكان الحديث عن مثالية عقلية كما هو حال ديكارت، ومثالية تجريبية كما هو حال باركلي، والمذهب المادي بالمثل، إذ يمكن الحديث عن مادية عقلانية كالماركسية والوجودية، ويمكن الحديث عن مادية تجريبية مثل الوضعية المنطقية، وهذا إن دلّ على شيء فإن من ضمن دلالاته الإشارة إلى أن سعة صدر الفلسفة ورحابتها وقبولها للتنوع والاختلاف والاعتراف به قاد إلى تشكيل هذه المذاهب التي شكّلت علامة فارقة في الفكر الإنساني، واليوم كُلنا أمل أن تتكرر هذه التجربة على الصعيد العملي والسلوك الإنساني بين الأفراد بما ينعكس إيجاباً على المجتمع ككل.

هذه الوقفة أو المرور السريع في تسليط الضوء على محطات رئيسية في رحلة الفلسفة للإجابة على السؤال

المعرفي، والتي جاءت متمثّلة في أربعة تيارات رئيسة على الأقل ينطوي تحت لوائها مدارس وتيارات كثيرة ومتباينة، جاء كل منها معبراً عن محاولة تقديم أفضل إجابة ممكنة من وجهة نظر القائلين بها، وبرغم سيادة مذهبٍ ما على غيرة من المذاهب والتيارات في زمان وبيئة ما، فمردّ ذلك إلى طبيعة الظروف التي جاءت مناسبة أو داعمة لتيار فلسفي على آخر، فإن هذا لا يعني أنها مارست الإقصاء لتيارات أخرى أو قامت بتحريمها أو نبذ القائلين بها.

وكان للعقل والأخلاق الإنسانية أيضاً من الرحابة ما يؤهلها لاحتواء كل هذه الأطياف المتنوعة والمتباينة، الأمر الذي يجب أن يشكّل لنا في الوقت الحاضر مثالاً يجب الاقتداء به وتعميمه على نمط حياتنا السائدة، فالناظر في هذه المذاهب ماذا يرى؟ يرى أن كل مذهب أعتقد أصحابه بأنه المذهب الصائب، وفي خضم دفاعهم عنه وصياغة أفكاره والترويج لها، كانت تحركهم قناعتهم أنهم يمتلكون الحق والحقيقة، وأنهم يريدون أن يقدموها للآخرين، لم يكن الهمّ

هو رفض الرأي الآخر والقائلين به، ومن ثم نبذه أو حتى إقصائه أو التهجم عليه، إن القضية هنا ذات همّ عام، وذات بُعد إنساني تقف الأفكار فيها في مواجهة الأفكار، والبقاء فيها للأكثر صحة، وأكثر منطقية، للأكثر انسجاماً مع الظرف الراهن، والأكثر تلبية لاحتياج الإنسان.

لنا في الأخلاق مثالاً أيضاً، إذ تعدّ الأخلاق علماً معيارياً، أي أنها لا ترصد ما هو كائن فقط، بل تخبرنا بما يجب أن يكون، ومع أن الفعل الخلقي يُحكم عليه بالصواب والخطأ، وقد يقود هذا للاعتقاد للوهلة الأولى أن من اليُسر أن نتبيّن الفعل أو السلوك الصائب من الخاطئ، إذ لا يمكن أن يذهب أحد للقول بأن السرقة أو الرشوة أو عدم مساعدة الآخرين هو سلوك صائب، أو أن يذهب أحدهم إلى القول بأن احترام الكبير ورعاية المريض أمر خاطئ، وهذه السهولة أو الاستسهال في النظر إلى الأمر هو ما يسوغ لنا الاعتقاد أن لا خلاف في الحكم الأخلاقي على الأفعال والسلوكيات الإنسانية، وهذا بالتأكيد ليس صحيحاً، إذ عرف تاريخ الفكر

الإنسـاني تنوعــاً هـائلاً في المـذاهب الأخلاقيـة، سـواء التـي قامت على أساس ديني، فعرفـت بـالأخلاق الدينيـة، أو التـي صـاغها الأفـراد وأفرزتهـا المجتمعـات، فعرفـت بـالأخلاق الوضعية، ويشـار هنـا إلـى أن الحكـم الخلقـي علـى الأفعـال الإنسانية هو حكم متغيّر بحسب الزمـان والمكـان، إذ يمكـن أن يتغيّـر الحكـم الأخلاقـي علـى فعـل مـا في ذات المكـان بـاختلاف الزمـان، أو أن يختلـف في ذات الزمـان بـاختلاف المكان. فما يُعدّ فعل أخلاقـي في بلـد كـالأردن، ربمـا لا يُعـدّ كذلك في بلد مثل فرنسا، كذلك مـا يُعـدّ فعـل لـيس صـائباً في الأردن قبل مئة عام أو مئة وخمسين عامـاً قد لا يكون له ذات الحكم القيمي اليوم، وهذا يقودنـا إلـى التأمـل والاعتبـار مـن هذا التنوع والمراوحة والتبـدّل والتغيّـر في الآراء والمواقـف، لكـي نسـتلهم منهـا التواضـع في إصـدار الأحكـام وتجنـب التعصب الأعمى والدائم لكل مـا لنـا مقابـل أو علـى حسـاب كـل مـا لا نقبلـه أو لا نتفـق معـه، مؤكـدين أن قبـول التنـوع لا يعني تبنيه أو الأخذ به وترك ما نحـن عليـه مـن اعتقـاد أو رأي أو موقف.

للتفكير وللنقاش:

١) حـــاول أن تتـــذكر أي مـــن مواقفـــك الماضـــية أو سلوكياتك التي تغيرت الآن بسبب النضوج؟

٢) ما العوامل التي ساهمت في نضوجك الخاص؟

ما المطلوب الآن

ليس الغاية هي القضاء على من يختلف معي في الرأي أو المذهب إنما الغاية إثبات الموقف والكشف عن الحقيقة التي أعتقد أني أمتلكها، إن أرض الواقع تتسع للجميع وبوتقة الإنسانية تحوي الجميع أيضاً على اختلافهم، ناهيك عن أن الآراء والمواقف تتغير وتتبدل لتعبّر عن البيئة التي تنتج فيها لتكون منسجمة معها ومعبّرة عنها، وإلا لن يقيّض لها البقاء أو الاستمرار، وعدم البقاء أو القبول لأي فكر في أي مجتمع أو لدى أي جماعة ليس مرده بالضرورة إلى عدم صلاح الفكر، بل يمكن أن يُرد إلى عدم تهيئة البيئة أو العقول لاستقبال هذا الفكر أو ذاك، لنرى بعد ذلك أنها قد تعود من جديد وتقدم في بيئة أخرى، مختلفة أو زمان مختلف فتلقى رواجاً باعتبارها طرحاً صائباً وحقيقياً، وهذا ما يقود إلى القول أن رفضنا لفكر ما قد يكون ناتجاً عن تقييمنا لهذا الفكر بشكل غير صحيح وغير حيادي، وقد يكون مرده إلى

وعينا ومقدار نضجنا والظروف المحيطة بنا باعتبارها عاملاً أساسياً في قبول أو رفض أي مذهب أو فكر، ثم ما يتبعه وينتج عنه من قبول أو رفض للقائلين به، وهذا ما قد يؤول إلى إنهيار هذه المذاهب والتيارات من تلقاء نفسها دون الحاجة إلى تكريس الوقت والذات للقضاء عليها أو ردها لنؤكد من جديد أن الغاية ليست الانشغال في هدم الآخر بقدر ما هو دعوة لبناء الذات.

علينا أن نعي انطلاقاً من النظر إلى التاريخ الإنساني بشكل عام، أنه من النادر إن لم يكن من المستحيل أن تولد الفكرة مكتملة النضوج، ويُقال ذات الأمر على أي مذهب أو تيار فكري، فالتطور البنيوي القائم على النضوج التدريجي لمقومات أي منظومة أو منهج على حدة، ومن ثم النضوج والتطور التدريجي للعلاقات القائمة بين هذه المكونات فيما بينها هي السمة العامة المشتركة التي يمكن أن نرصدها عند تحليل أي من التيارات أو المناهج الفكرية، ولنا فيما سبق الوقوف عليه من التمثل الفلسفي للإجابة على السؤال المعرفي مثالاً على ذلك، فلا يهيئ لنا أن الحديث عن مثالية

كانط يتطابق مع الحديث عن مثالية أفلاطون على رغم من أن كل منهما ينتمي لذات المذهب المثالي، كذلك الأمر في المذهب التجريبي فلا تُعدّ تجريبية هيوم هي ذاتها تجريبية أرسطو مع أن كليهما تجريبيان.

الإشارة هنا إلى التطور الدائم للمذهب بما يتناسب مع معطيات عصره ومتغيراته المعرفية ودرجة النضج العقلي.

نجد أنفسنا هنا أمام سؤال مهم، ما المطلوب منا؟ ما المطلوب بعد كل ما تقدّم وسبق ذكره؟ هل يُراد به فقط تأمل التجربة الفلسفية (الإنسانية)؟ أم أن هناك ما هو أبعد من ذلك؟ بالتأكيد الإجابة هي أن هناك ما هو أبعد من ذلك، فإذا كانت التيارات والمذاهب الفكرية تتطور بما يضمن لها بقاءها وملاءمتها لمعطيات عصرها ومتغيراته، فكم بالأحرى يجب على الإنسان أن يكون له من الوعي والمرونة العقلية ما يتيح له أن يتفاعل بشكل إيجابي مع معطيات عصره ومتغيراته، ولا يقصد بالوعي والمرونة العقلية أن يتغيّر ويتبدّل الإنسان أو يتلوّن كل حين بلون، بالتأكيد ليس هذا هو المطلوب ولا المرغوب به أصلاً، ولا يقصد به أيضاً

انعدام الهوية وانتفاء الشخصية، أو الميل مع كل ريح تهب، إنما المقصود هو حفاظ الإنسان على رغبته وقدرته في التواصل مع الآخر مع تمسكه بثوابته، دون صدام يفضي إلى احتكاك لا يليق بالكرامة الإنسانية أو بالسلوك البشري الذي ندّعي أنه سلوك متحضر.

الحضارة والتحضّر ليست ذات بُعد مادي فقط يتجلى في البناء والاقتصاد والقوة والسيطرة العسكرية، ذلك أن الموسيقى حضارة، والأدب حضارة، والأخلاق حضارة، إن أخلاق الحضارة والتحضّر تفرض على الجميع احترام الاختلاف والتنوع، فأي حضارة إنسانية كي تُعدّ حضارة، عليها من ضمن العديد من الشروط والمتطلبات التي يجب أن تحققها، عليها أن تتحقق من موقفها من التنوع والاختلاف، ومن أن لها القدرة على احتواء هذا التنوع والاختلاف لا بل حتى الانفتاح على شتى الحقول والمعارف، فالإنسان الفرد في المنظومة الاجتماعية يرتقي بذاته، ويكون مسؤولاً على نضوج وعيه إلى حدّ ما، وهو بالتأكيد معني أيضًا بالمجتمع الإنساني، وكل أطيافه المكونة

له، لذا وجب على كل فرد أن يرتقي بذاته، ومن ثم أن يرتقي بغيره قدر الإمكان، ليؤثر فيه إيجابياً، وله في المقابل ذات التأثير السلبي أيضاً، فكيف تستقيم ثقافة الرفض والإقصاء جنباً إلى جنب مع ثقافة الحب والعطاء؟ كيف لي أن أُنشئ جيلاً متزناً عقلياً ووجدانياً في ظل هذه التناقضات الواضحة؟ إن الإنسان الذي حمل الخير في داخلة سيفيض خيراً، ومن حمل الحب سيفيض حباً، وبالمثل من حمل الكره والرفض سيفيض كرهاً ورفضاً، وهذا بالتأكيد ما لا نريده.

فأي مصير ينتظر مجتمعاً أو جماعة بشرية ترفض بعضها أو تُقصي غيرها أو تُغلق نوافذ العقل والقلب عن كل ما لا يشبهها أو يواتي رؤيتها؟ ثم أي واقع يمكن أن نعيشه إذا ما كان هذا نمط السلوك السائد عند الجميع؟ فأنا حين أرفض الآخر ما الذي أنتظره حينها؟ هل أنتظر أن يقبلني وينفتح عليّ؟ لنحاول معاً أن نتصور الحالة التي سنصير عليها حين يرفض الجميع الجميع، ولنفترض جدلاً في المقابل أن الآخر أو تلك الجماعة الأخرى، التي مارست

بحقهـا الإقصـاء أو الـرفض، لـم تبـادل الـرفض والإقصـاء بمثلهمـا، ألا يضـعني هـذا أمـام استحقاق أخلاقـي وسـؤال وجودي يدفعني للتساؤل والبحـث عـن المكـون المعـرفي أو الوجودي أو الأخلاقي الذي من شأنه أن يدفع الآخر للتعامل بهذا القدر من التسامح والتفهم وعدم مقابلة الرفض بالرفض والإقصاء بالإقصاء؟

لـنكن صـادقين مـع أنفسـنا، مـا الـذي نرفضـه حقـاً؟ ومـا الذي ننغلق عليه؟ القول بإقصاء الآخـر أو التأكيـد علـى تفـرد جماعة ما - وغالبـاً مـا سـتكون هـذه الجماعـة هـي الجماعـة التي أنتمي إليها، وأفضليتها، ألا يقتضي هذا أن أرفض كل ما يـأتيني مـن ذلـك الآخـر باعتبـار أني أنتمـي للجماعـة الأفضـل والأصلح؟ ألست أجد نفسي أفضل منه؟ لماذا إذاً الانتقائية؟ أرفض الآخـر وأقصـيه، لكنني لا أرفـض انتاجـه ولا صـناعته ولا علاجـه؟ أقـول بـأن الجماعـة التـي أنتمـي لهـا تمتـاز بأفضـليتها عـن أي جماعـة أو تيـار أو مـذهب آخـر، وفي ذات الوقت لا أمتلك زمام أمري وناصية قراري، لا بل أراني تابعـاً لذلك الذي أرفضه وأقصيه، وأقـول بتفـوق وأفضـلية مـذهبي

واعتقادي ومنهجي عنه، إننا هنا أمام انتهاك صارخ لمطلب "الاتساق" الذي توقفنا عنده سابقاً، مؤكّدين على محوريته وضرورة تحققه في أي مذهب أو تيار أو موقف فلسفي، كي يُعتدّ به أصلاً أو كي يُعتبر مذهب من حيث المبدأ. هذه دعوة لنا لنقيّم آراءنا ومواقفنا بالاستعانة بالمعيار الفلسفي القائم على استخدام الأدوات العقلية والمنطقية، ثم التحقق من شرط الاتساق وعدم التناقض على المستوى الداخلي للموقف، أي على مستوى الآراء المكونة للمذهب أو التيار، بحيث لا تتعارض أو تتناقض مع بعضها بعضاً، هذا التحقق يطبّق على مستوى الوعي واللاوعي على السواء، فالطريق الصحيح الذي نريد أن نسير عليه، تبدأ خطواته الأولى من الداخل، أي من داخل الإنسان، من ذلك المكان المعتم بداخله الذي نوجّه له الدعوة اليوم لفتحه، ولفتح نوافذ العقل عليه، ليدخله نور الوعي ورياح التغيير.

يُشار في هذ المقام أن التنوع الذي شهدناه في الفلسفة وإجاباتها على السؤال المعرفي يتكرر على كافة الأسئلة في شتى الحقول المعرفية، وبالتالي فالقارئ سيشهد هذا التنوع في كافة

الإجابات أو الطروحات الفلسفية، فلا نكاد نذكر على امتداد التاريخ الإنساني أن الفلسفة كانت ذا لون واحد أو بُعد واحد، بل كانت دائما تقدّم إجابات متنوعة بقدر تنوع مذاهبها، ويجدر هنا التأكيد أيضاً، أنه لم يُسجل على امتداد الفكر الفلسفي إن كانت هناك محاولة أو سعي للقضاء على فكر أو شخص ما بسبب ما يذهب إليه من آراء، قد يحدث هذا الأمر من خارج الوسط الفلسفي، لكن وفقاً للتجربة التاريخية لم يحدث هذا من داخلها قط، لا بل كان الفلاسفة أو المفكرون هم في أغلب الأحيان ضحايا حكم ورفض البعض لهم، حال المفكر المصري قريب العهد نصر حامد أبو زيد.

بالعودة الى التنوع في الإجابات التي قدّمتها الفلسفة في سعيها للإجابة على أي من أسئلتها في الحقول المعرفية المختلفة، يتضح للقارئ أو الباحث أن هذا الأمر كان ديدن الفلسفة، ومردّ ذلك أن الفلسفة تسعى إلى تقديم أفضل إجابة ممكنة على أي سؤال تطرحه، لاحظ معي عزيزي القارئ هذا المبدأ الفلسفي "محاولة تقديم أفضل إجابة ممكنة"، لنقف معاً عند أبعاد هذا الطرح، وعمق هذا التصور باعتباره

فكراً محركـاً للعقـل الفلسـفي. فـالاعتراف المسبق بـأن مـا يقدّمه هذا المذهب أو ذاك، ليس جوابـًا نهائيـًا يُغلق من بعـده باب البحث ويُحرّم التفكير، بل إنه يسعى لتقديم أفضل إجابة ممكنة، في ضوء الإمكانـات المعرفيـة المتاحـة لـه الآن وهنـا، وهـذا يـترك البـاب مشـرعـًا لتقـديم إجابـة أفضـل في ضـوء معطيـات معرفيـة جديـدة، وفكـرة الإمكـان هنـا تـرتبط بعـدّة عوامـل ومتغيّـرات سـواء علـى الصـعيد الفـردي (الـذاتي)، ويقصـد بهـا تطـور الشـخص ونضـجه وزيـادة معرفتـه واتسـاع اداركه بما قد يقود إلـى تشكيل فَهْـم مختلف عمّـا كـان عليـه سابقـًا، وهناك أيضـًا العوامل غير الذاتية التي لا ترتبط بـالفرد وإنما بالمحيط، مثل التقدّم المعرفي والعلمـي، والاكتشـافات الحديثـة في المعـارف المختلفـة الـذي مـن شـأنه أن يقـدم معطيات جديدة أو فهم جديد لمعرفة سابقة تُسهم في نشوء أو تكوين إجابة أو نتيجة مختلفة عما كان قبل ذلك.

علـى الصـعيد الاجتمـاعي، حـين نُصـنّف الأفـراد والجماعـات إلـى آخـر، ومـن ثـم نُصـنّف هـذا الآخـر إلـى درجات، فبعض الآخـر أقـرب إلينـا مـن الـبعض الآخـر. هـل

ترى إشكالاً في الجملة؟ إنه ليس إشكالاً للأسف، بل هذا هو بالفعل ما نحن عليه، دون التفكير أو دون التوقف على الأساس الذي - بناء عليه- قمنا بهذا التصنيف أو اتخذنا هذا القرار، قد نرى في مجموعة ما آخر أقرب إلينا من مجموعة ثانية، ومرد هذا الشعور قد يكون أحياناً بسبب طبيعة العلاقات الجيدة التي تربط بين الأفراد في هذه الجماعات او المجتمعات أو حتى الدول، وهنا يكون للقرار السياسي دور في طبيعة هذه العلاقات، وهذا التقسيم، ثم ما تلبث أن تتغيّر المعطيات السياسية، وما ينتج عنها من قرارات، ليحصل فجوه أو برود في العلاقات، والسؤال هنا ماذا يحدث لهذا الذي كنا ندعوه آخر أقرب إلينا من آخرٍ ثانٍ؟ هل لا زال قريباً منّا أم بات بعيداً عنّا؟ هل ترى في اختلافه بعد الآن أمراً مقبولاً أم بات مرفوضاً؟ ما أساس حكمنا الآن؟ وماذا سيكون الأساس غداً؟ إن غياب المعيار أمر في غاية الخطورة، فلا مرجع للصواب والخطأ، ولا مرجع لاتخاذ القرار أو بيان الموقف، ففي غياب المعيار تصبح الذات الفردية وأهواؤها ومصالحها وأطماعها هي المعيار، وهذا

تصور خطير جداً لما يمكن أن يصبح عليه الأمر، والفلسفة لم تهمل هذا الخيار أو الطرح، إذ ذهب قديماً فلاسفة اليونان المعروفون بالسفسطائيين، وهم معلمو بلاغة وخطابة، إلى التلاعب بالألفاظ والأساليب البلاغية، التي من شأنها أن تؤثّر على المتلقي، بحيث أنهم كانوا يعلّمون الدفاع عن الفكرة ونقيضها على السواء، الأمر الذي جعلهم (أي جعل السفسطائيين) فئة مرغوبة لدى السياسيين بشكل خاص، ولم يغفل العقل الفلسفي عن النتائج الوخيمة المترتبة على هذا الفكر من انهيار للمنظومة المعرفية والأخلاقية على السواء، وإن تساءلت لماذا قد تُعدّ هذه النتائج وخيمة؟ فمردّ ذلك إلى غياب المعيار. هل لك أن تتخيل معي أهمية وجود المعيار الآن، وأهمية الأساس العقلي والمنطقي لاتخاذ القرار أو بناء الموقف في ضوئه، فغياب المعيار يتيح لكل منّا أن يصبح معياراً لذاته، ودليلاً على صدق دعواه، وهذا يجعل كل الآراء على قدم المساواة، وكل الحقائق كذلك.

للتفكير وللنقاش:

١) ما شكل المجتمع الذي تودّ العيش فيه؟

٢) ماذا يجب أن تغيّر في نمط سلوكك لتساهم في تحقيق هذه المجتمع؟

الخاتمة

الناظر إلى التاريخ الإنساني في تمثّله الحضاري والمعرفي، سيقف مشدوهاً أمام هذا الكم الهائل من التنوع على صعيد الأنماط السلوكية والمناهج الفكرية، وأكاد أجزم أنه سيعجز عن رسم صورة شاملة، يمكن من خلالها تعداد هذه التباينات والتحولات الكبيرة وحصرها على امتداد كل هذه السنوات، ومع ذلك، يطيب لي أن ألفت نظرك عزيزي الشاب إلى نقطة ضمنية في هذا التاريخ، لقد عاشت على هذه الأرض حضارات استمرت مئات السنين، وكان لبعضها من السلطة والنفوذ العسكري والاقتصادي ما تعجز عنه بعض الدول المعاصرة، إذا ما قسنا الأمر نسبة وتناسباً مع زمان كل منها. حضارات أصابت من العلم والفكر الكثير، وحضارات أصابت من القوة الكثير، وخاضت الحروب، واحتلت البلاد والعباد، واليوم كلّها زالت، ولم يبقَ منها إلا أثرها، فكان أثر هذه الحضارة يتجلّى في البنيان والعمران، فخلّفت آثاراً

شامخة تقف أمامنا حتى يومنا هذا، وتشكّل نبراس نور وتحضّر ورقي إنساني، وبعضها ترك فكراً وعلماً وصل لنا على شكل كتب ومخطوطات ولفائف، حَوت من المعرفة والعلم ما أسهم في تقدّم الإنسان وتحضّر الإنسانية، معرفة أسهمت في وصولنا اليوم لما نحن عليه، وبعضها الآخر ترك سيرة مليئة بالحرب والدمار والخراب والموت، اليوم نقف أمام وعينا بهذه التحولات، ونسأل ذواتنا بعقل منفتح وضمائر حية، ما هو الإرث الذي نريد أن نتركه نحن للأجيال من بعدنا؟ هل نعي حقاً وخامة ما نمارسه اليوم من تجنّي على الإنسان بحجّة نصرة الإنسان؟ يبدو الكلام غريباً أو متناقضاً، لكنه للأسف كلام حقيقي، فيه وصف لواقع نعيشه ونمارس فيه سلوكنا المشوه والغريب تجاه بعضنا بعضاً، بحجة أفضلية بعضنا عن البعض.

حظيت بعض بقاع الأرض بأهمية فاقت ما حظي به غيرها من البقاع، ومردّ جزء من هذه الأهمية يكمن في غنى المكون الثقافي وتنوع المكوّن الحضاري، واليوم ترانا نفاخر ونتغنّى بآثار بلادنا، وبالنسيج المتراص في مجتمعنا، وعلينا

أن نحافظ على ما نتغنّى به، بل وعلينا أن نزيد عليه وننمّيه، لقد وصل إلينا ممن سبقونا، ونحن نزيد عليه لمن يأتي بعدنا، وأودّ أن نتساءل معاً في هذا المقام، هل هذه الآثار من صنع أيدينا أم أننا ورثناها؟ أنا وأنت نعلم الإجابة، حسنا ماذا سنترك نحن؟ هذا ما يجب أن يشغل بالنا، كيف نصنع حاضرنا بما يليق بنا، وماذا سنترك من أثر؟ أثر يستحق أن يفاخر ويتغنّى به من يأتي بعدنا، من هم امتداد لنا.

نعم، لنا من المعرفة اليوم ما لا سابق للإنسانية عهداً به، ولم يتسنَ لأي جماعة في أي فترة سابقة أن تصيب حتى ما يقرب مما لنا، لكن لا قيمة للمعرفة أي معرفة، مهما أصابت من الحقيقة، ما لم يرافقها وينتج عنها سلوك عملي على أرض الواقع، والواقع اليوم يشمل المجتمع الإنساني على امتداده، لم يعد هناك خصوصية لمجتمع أو لجماعة بالمعنى التقليدي القديم، فالتطور في وسائل الاتصال والمواصلات لم تعد تسمع بذلك، ونظرة خاطفة لمحيطك ستكون كافية لتأكيد ذلك، أركب حافلة نقل عام لتقللك من منزلك إلى جامعتك أو مكان عملك، لتلتقي القادمين من مختلف

محافظـات الأردن، وتلتقـي أخـاك السـوري، والمصـري، والعراقي، وغيرهم من كل الأقطار، تأمل يومك يا صديقي، وتأمـل مَـن تلتقـي بهـم، سترى أنـك تخـالط نصـف أجنـاس الأرض في مشوارك اليومي نحو الجامعـة أو مكـان عملـك أو أثناء تسوقك، السؤال هنا، كيف تنظر لهم؟ ماذا تفكـر فيهم؟ هل تبادلهم السلام؟ هل تبادلهم الابتسام؟ هل تعـي تـأثيرهم في حياتـك؟ هـل لا زلـت تعتقـد أنـك تعـيش في مجتمـع لـه خصوصيته وتجانسه المتفرد عن أي مجتمع آخر؟ إن لـم نـعِ حقيقـة الأمـر سـنكون أكـبر الخاسـرين، وسـندفع ثمـن عـدم إدراكنا غاليـًا جداً.

ما المطلوب منّا الأن؟ استعرضـنا سـوية إحـدى تجليـات الإجابات الفلسفية في موضوع المعرفة، والتطور الـذي حصـل على هذه الإجابة بما يتناسب ويتوافق مع تقدم وتطور الإنسان نفسـه، وهـذا الأمـر هـو سـمة الكثير مـن المنـاهج المختلفـة في شـتى الحقـول المعرفيـة، وأثبـت بالـدليل العملـي نجاحـه، المطلوب اليوم هـو استلهام المفـاهيم المكونـة لهـذه المنـاهج وتطبيقهـا في الحقـل الإنسـاني ونظامـه الاجتمـاعي، المطلـوب

استلهام مفاهيم الاتساق والمعيار وتطبيقها على آرائنا ومواقفنا، المطلوب هو محاكمة قناعاتنا وأحكامنا التي نصدرها، والمطلوب أيضاً أن نمارس النقد، النقد باعتباره تحليلاً يرنو للتحقق من المعرفة، ويرنو لتشخيص الواقع، وبيان مواطن الضعف فيه، ووضع تصور لما يجب أن يكون عليه، ليس هذا فحسب، وإنما تقديم خارطة طريق أو آلية تقود للوصل إلى هذا التصور الذي نريد، ولا يقف الأمر عند النقد بالمعنى السابق فقط، بل يتعداه ليشمل النقد الذاتي، أي نقد الإنسان لمكوناته المعرفة وموروثه وقناعاته بشكل مستمر، كي يضمن تنقيتها من أي شائبة علقت بها في غفلة منه.

الدعوة اليوم عزيزي الشاب، أن تكون أنت التغير الذي تطمح أن تراه في مجتمعك، هل تملك تصوراً عن الخير الذي تريده في حياتك؟ أو تصوراً عن الرقي والتعامل الأخلاقي الذي تصبو لأن يُقدّم لك من الآخرين؟ اليوم كن أنت هذا الخير، وهذا الرقي، وهذا السلوك الأخلاقي في حياة الأخرين، المطلوب منّا اليوم أن نفتح عقولنا ونشرع أبواب قلوبنا نحو أخينا الإنسان، من اتفق معه ومن اختلف، لنترك

الغرف المغلقة وننطلق نحو رحابة الواقع ونكتشف جمال تنوعه وعظمة اختلاف مكوناته هذا الاختلاف، الذي شكّل الصورة العامة التي نحن جزء منها.

قائمة المراجع

١) بـدوي، عبـدالرحمن، (١٩٦٢)، فلسـفة العصـور الوسطى، مصر: مكتبة النهضة.

٢) بن نبي، مالـك، (٢٠١٨)، مشكلات الحضارة، عمان: وزارة الثقافة.

٣) جلسـون، ايتن، (٢٠١١)، روح الفلسـفة المسيحية في العصر الوسيط، بيروت: دار التنوير.

٤) جيمس فريزر، (٢٠١٤)، الغصن الذهبي، ترجمة نايف الخوص، دمشق: دار الفرقد.

٥) خواجا، صادق، (٢٠٠٠)، العقيدة والإنتاج المعرفي، عمان: دار الشروق

٦) غريغوار، فرنسوا، (١٩٨٤)، المذاهب الأخلاقية الكبرى، ترجمة قتيبة المعروفي، بيروت: منشورات عويدات.

٧) رويه، ريمون (١٩٨٩)، نقد المجتمع المعاصر، ترجمة عادل العوا، بيروت: منشورات عويدات.

٨) داؤود، أحمــد، (٢٠٠٤)، تــاريخ ســوريا الحضــاري القديم، ٤ مجلدات، دمشق: دار الشرق.
٩) السيد، عزمي طه، (٢٠٠٤)، التصوف الإسلامي ودوره الحضاري، عمان: المؤسسة العربية الدولية للنشر.
١٠) السيد، عزمي طه، (٢٠١٥)، الوجه الآخر للفلسفة، إربد: عالم الكتب الحديث.
١١) الجابري، محمد عابد، (١٩٩٨)، أبو حامد الغزالي دراسات في فكره وعصره وتأثيره، المعرب: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد السادس، الرباط.
١٢) زهرة، أحمد، (٢٠٠٩)، العقل العربي، سوريا: دار العراب ودار نور.
١٣) كــرم، يوســف، (٢٠١٦)، تــاريخ الفلســفة الأوربيــة في العصر الوسيط، مصر: المؤسسة المصرية للطبع والنشر.
١٤) كــرم، يوســف، (٢٠٢٠)، تــاريخ الفلســفة اليونانيــة، القاهرة: دار العلم والمعرفة.
١٥) مراد، سعيد، (١٩٩٢)، العقل الفلسفي في الإسلام، مصر: الأنجلو المصرية.

١٦) مـورانج، جـان، (١٩٨٩)، الحريـات العامـة، ترجمـة وجيه البعيني، بيروت: منشورات عويدات.

١٧) ميـد، هنـتر، (١٩٦٩)، الفلسـفة أنواعهـا ومشـكلاتها، ترجمة فؤاد زكريا، القاهرة: دار النهضة المصرية.

١٨) هـورس، جوزيـف، (١٩٨٦)، قيمـة التـاريخ، ترجمـة نسيم نصر، بيروت: منشورات عويدات.

الفهرس

الآخر وجوديًا ومعرفيًا

إضاءات فلسفية على حتمية التنوع



خمس سلاسل للنشر، متطورة وعصرية، تطلقها وزارة الثقافة الأردنية، تسد النقص في المكتبة المحلية والعربية، منشورات مهمة في حقول معرفية مختلفة، فجاءت سلسلة فكر ومعرفة التي تسعى إلى خلق الوعي والإدراك وتنمية التفكير وفهم الحقائق وسياقات التاريخ والحياة، وتفسير النتائج والتجربة الإنسانية، وخلق التأمل الفلسفي ضمن آليات المنطق والتحليل العلمي. وسلسلة الفلسفة للشباب بهدف تشجيع الأجيال الجديدة للإفادة من مناهج الفلسفة في فهم العالم المعاصر، وتوعية الرأي العام بأهمية الفلسفة، واستخدامها نقديا لمعالجة طروحات العولمة وعصر الحداثة. وسلسلة الكتاب الأول التي تُعنى بنشر الكتاب الأول للمؤلفين؛ كباكورة لأعمالهم المستقبلية، مع مراعاة الإبداعية والشروط الكتابية الناضجة. وسلسلة سرد وشعر التي تُعنى بالكتابات الشعرية والسردية المهمة، المغايرة والمختلفة في الطرح والشكل، ذات الجودة والمكانة في تحقيق إضافة نوعية للمكتبة المحلية والعربية. وسلسلة شغف، تختص بالمخطوطات الموجهة للطفل، شعراً ونثراً، تراعي حاجات الطفل الفكرية والنفسية والوجدانية، وتحقق شروطها الفنية والجمالية والإبداعية.




9 789957 947293

هاتف: 962 5696218 + فاكس: 962 5691640 + ص.ب: 6140 عمّان - الأردن
E-mail:info@culture.gov.jo website:www.culture.gov.jo

هذا الكتاب متوفر على منصة الكتبا الإلكترونية
https://alkutba.gov.jo